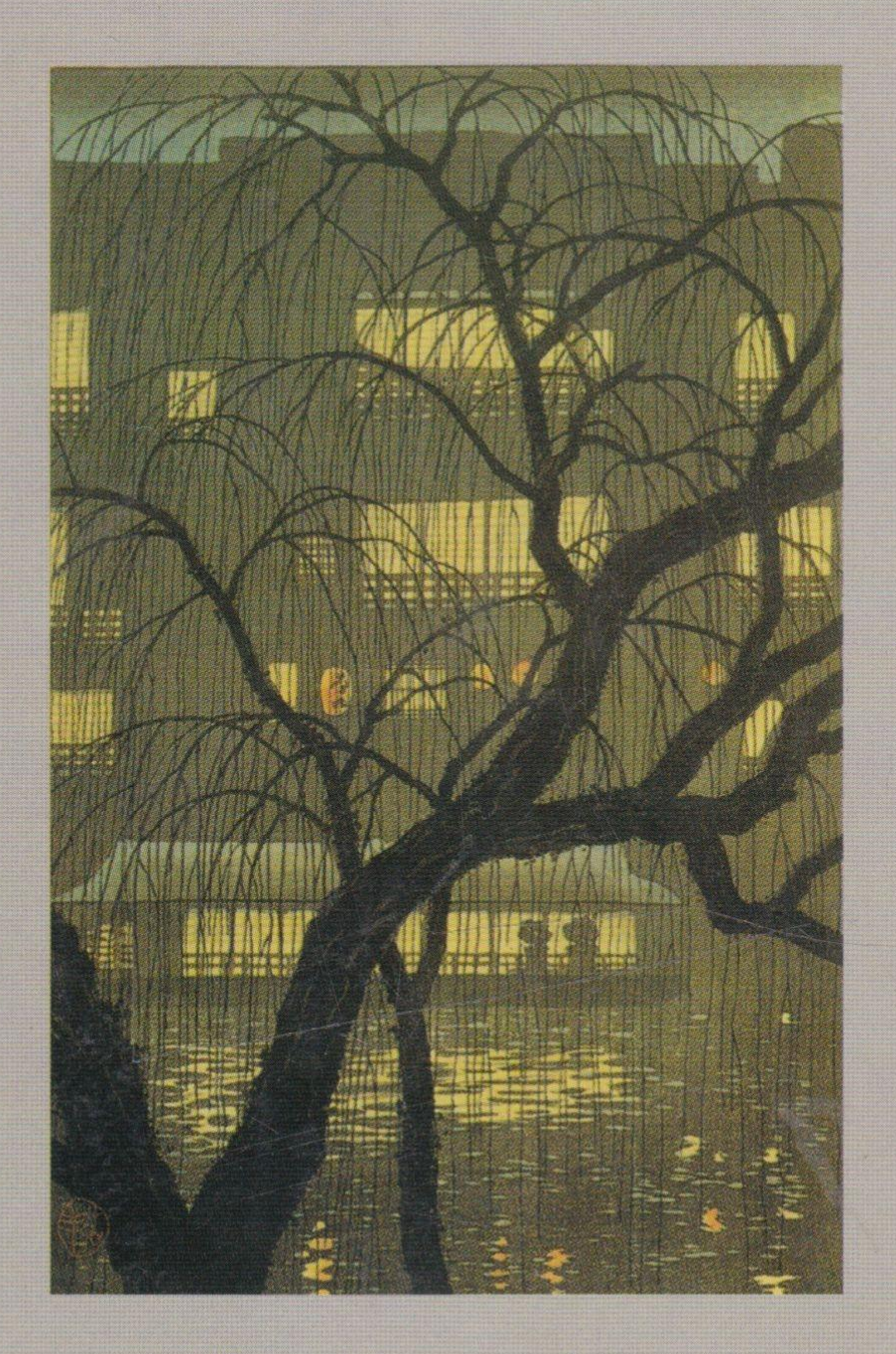
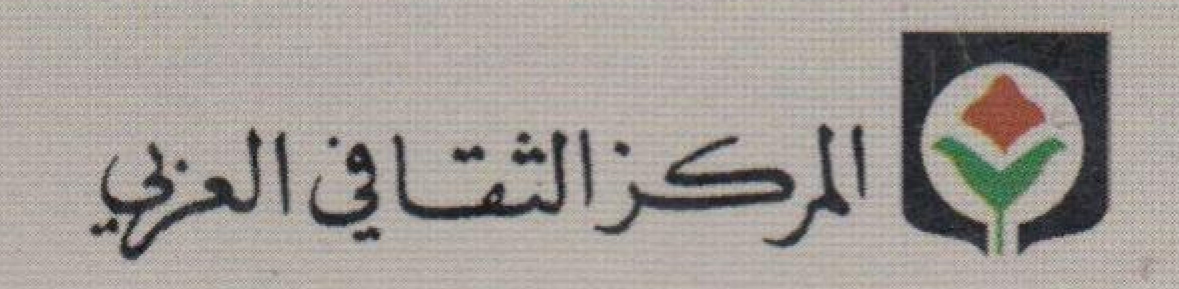
رواية

رينيه الحايك

حياة قصيرة



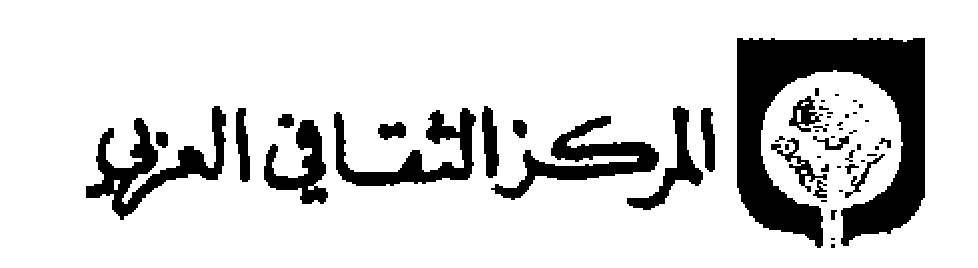


رينيه الحايك

حياة قصيرة

رينيه الحايك

حياة قصيرة



الكتاب

حياة قصيرة

المؤلف

رينيه الحايك

الطبعة

الأولى، 2010

عدد الصفحات: 184

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9953-68-436-7

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ 307651 522

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ــ لبنان

ص.ب.: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

إلى مروى وربيع

إبراهيم

الأمطار تضرب زجاج السيارة. تقوى. لا أرى أمامي. أنتظر منذ عشر دقائق في مدخل موقف السيارات، يحين دوري أخيراً، العامل يقف بمشمعه الأصفر ملوحاً بكلتا يديه إلى خلف، لا مكان لسيارتي. أي لعنة هذا الموعد. يتكرّر الأمر في مرآبين آخرين. الآن عليّ أن أجد واحداً حتى لو كان بعيداً عن المكان الذي أقصده. تأخرت ثلث ساعة. الأمطار العنيفة تصعّب خروجي من السيارة. ما إن أضع قدمي خارجها حتى يمتلئ حذائي بالماء. المظلة بلا فائدة، تتعالى قضبانها ملتوية نحو السماء، كأنها كأس كبيرة. أقفز متجنباً السيول، أصطدم بامرأة. أعتذر بكلمات غير مفهومة. أنتبه فجأة، هذه يارا. كانت تكمل سيرها عندما ناديتها تكراراً «لم أعرفك.. أقصد تغيّرت كثيراً». أحنت رأسها كأنها مترددة، تريد أن تكمل سيرها، لكنها مرتبكة، غير قادرة على تجاهلي. في العادة يفرح الناس عندما نقول لهم إنهم خسروا وزناً، لكن ليس في حالة يارا. قضت عمرها تحاول كسب بضعة كيلوغرامات.

تلعثمتُ حين لفظتُ اسم ريتا. هي أيضاً، ارتبكت. تباطأت في خطواتها كأن السماء لا تفرغ فوق رؤوسنا هذه الأنهار. لم أسمع كلماتها كلها. لكنني فهمت ما يكفي. سرنا متجاورين. بنطلوني تبلل حتى حدود الركبة. حملت عنها حقيبة قديمة تخرج من سحابها غير المغلق أطراف أثواب سوداء.

المصعد لا ينزل إلى الطابق الأرضي، يتوقف عند كل طابق وقتاً طويلاً. سرت خلفها في الممرات الطويلة، قلبي ينبض في رأسي كأنني سأقع. وجوه غائمة، أصوات، أطباء بالمبذل الأبيض، ممرضة تجرّ سريراً نقالاً، مريض يحاذر في خطوه البطيء محاذياً الجدار، مكبرات الصوت تستدعي طبيباً مكررة اسمه.

رأيتها في السرير. عيناي تسمّرتا باتجاه هذا الجسم القليل فوق الملاءات البيضاء. أقف جهة الستارة التي تفصل بينها وبين المريضة المجاورة. لا أكلّم أمّها حين أنتبه لجلوسها قريباً من قدمي ابنتها. تواصل مسح دموعها بمحرمة قماش مطرزة. يخرج صوتي مبحوحاً حين أكرّر ندائي «ريتا... ريتا». لا أجرؤ أن أضيف على ذلك أي كلام. لا ترتدي ثياب النوم كالمرضى. ألبسوها مبذلاً أبيض عليه نقوش. كأنها في مريول مدرسة. ذراعاها رمليتا اللون ممددتان. أرى العروق الزرقاء كلها. أصابعها ثخينة بعقد كبيرة تتعارض مع رقّة ذراعيها. أرغب في النظر إلى راحتها. أتأمّل بثبات اليد التي أعرف أدقّ خطوطها. ترتفع يدها في الهواء ثم تخبط السرير. ينسحب الملقط الذي يمسك إحدى أصابعها. ترتسم علامة ثمانين بالمئة ثم ترتفع لتصل إلى تسعين بالمئة.

الجيوب الداكنة اللون تحت عينيها اختفت. وجهها نحيل كأنه خسر استدارته. عين واحدة نصف مفتوحة. الثانية مغلقة تماماً. لكن الجفن متورم عليه كدمة حمراء وزرقاء. أنظر إلى الشق في عينها لأرى إن كانت تعلم أنني هنا. أسمع همهمة خافتة تطلع من أعماقها كأنها احتجاج. «ماذا ترين يا ريتا»؟ أنبوبان يخرجان من فتحتي الأنف. كمامة أوكسيجين فوق الفم، اليد ترتفع ثانية كأنّها تريد قول شيء أو خائفة تحاول التمسك. هل تحلم كعادتها أنها تهوي من

مكان شاهق العلو؟ ماذا تسمع؟ أهي في غيبوبة حقاً؟ أتسمع النشيج الخافت، همس يارا الخجل؟ لو أكون وحدي فأكلّمها. كيف يمكن أن أطلب شيئاً مماثلاً؟ بأي حق؟ من أكون؟

الحشرجة تعلو في حنجرتها كأنها بكاء مخنوق. الأم يرتفع بكاؤها، يارا تنهرها. تهمس «ريتا لا تعرف يا ماما. ما بك؟»

تدخل الممرضة برفقة الطبيب، تأمرنا بالخروج. تبقى يارا لصق الباب لتحكي مع الطبيب حين يخرج. ألتفت، لا أرى أمّها. أسير تائهاً تماماً وسط الممرات. في القاعة التي لم أنتبه لها ساعة دخلت، أرى وجوهاً أعرفها. زميلان لريتا، أولاد عمومة، هناك من لا أعرفه أبداً. تحية سريعة نتبادلها بإيماءة من اليد أو الرأس. لكن صديقتيها اللتين كانتا تعرفانني جيداً اقتربتا مني لمصافحتي. كنتُ أفكرّ أنّ ما قالته يارا مبالغ فيه. ماذا لو بدأت بالتعافي. أعرف كثيرين عانوا من ضعف في عضلة القلب، لم تصنَّف حالتها بالشاذة؟ البواب السابق في الشركة لديه عضلة قلب ضعيفة، أنجب أولاداً وعمل حتى تقاعد ولم يمت. ألتقي به أحياناً برفقة زوجته ممسكة بيده أو بذراعه. صحيح أنه لا يتمكن من أن يسير كالبشر ولا أن يبذل مجهوداً، لكنه على قيد الحياة. لا يهمّ تاريخ العائلة ومشاكلها. نحن في القرن الواحد والعشرين. الطبّ تقدّم. ربّما طبيبها غير بارع بما يكفي.. لمن أقول ذلك؟ رنّ هاتفي، تذكّرت الموعد، نظرت إلى الرقم وأخرست الهاتف نهائياً. لا أريد أن يحكي معي أحد. تسللت قريباً من مودي صديقتها. مكثت واقفاً قربها بانتظار أن تفرغ من حديثها مع ابنة عم ريتا. قلت لها: «هناك أمل أليس كذلك»؟ أردت أن تكذّب ما أخبرتني إياه يارا، أن أمحوه. لم أهتمّ لشروحاتها ولأسماء الأطباء المعروفين الذين

عاينوها ولا لتشبيهها عضلة قلب ريتا بورقة خس مسلوقة. «مسألة ساعات أو أيام» قالت.

أعود أدراجي وسط ممرات متشابهة. لم أحفظ رقم غرفتها، استدللت عليها من أمّها وأختها المستندتين إلى الجدار. كأن أمّها أقصر الآن مما عرفتها. لا تزال ترتدي الأسود. ليس حداداً على زوجها ابن عمها فقط بل على ابن ثم ابنة لم يتجاوزا الثانية عشرة. كلهم ماتوا بسبب مرض وراثي يتعلّق بقصور في القلب.

تلحق يارا بالطبيب بعد أن يخرج. تسرع خلفه، تسأله فيما يواصل سيره، يكلّمها دون أن يلتفت أو يتوقّف. أفكّر أنه لا يعرف ريتا حقاً.

تجلس أمّها على الكرسي العريض نفسه، تشير إلى الكرسي الخشب الفارغ لأجلس عليه. لا أفعل. أقف لصق الستارة. أريد أن أمدّ يدي لأحسّ جبينها وذراعها. لا أجرؤ. تنتفض بقوة أكبر. ذراعاها يتحركان معاً نحو السقف ثم تخبطهما بالسرير، تحرّكهما ثانية يميناً وشمالاً. الصوت الطالع من داخلها يشبه الغضب. ينفلت أنبوب موصول إلى يدها.

قطرات دم تنقط على الملاءة البيضاء. تثبت الممرضة الأنابيب ثانية، تضيف حقنة ودواء إلى الأمصال. تقول: «الآن ستتحسّن وتهدأ، لن تشعر بشيء». على جهاز التنفس أقرأ: 63%.

تذكير للزوّار بضرورة مغادرة المستشفى. يتكرّر النداء عبر المكبّرات عدة مرات. الأقارب يحاولون إقناع الأم بالراحة هذه الليلة في بيتها. لا تردّ. كأنها لا تسمع. تستمرّ في جلوسها. تمسح طرف عينيها بالمحرمة القماش. تهمس شيئاً لريتا، لا يسمعه أحد.

أخرج حين ينسحب الجميع. أدخل إلى المصعد. بالكاد أجد لي

مكاناً فيه. شتول وهدايا يحملها بعضهم لأخذها للبيت. طبيب يتحرّش بممرضة، تردّ عليه بتهكّم. محادثات تختلط ببعضها على التلفونات المحمولة.

أقف أمام واجهة المستشفى الزجاجية، المطر توقّف. مصابيح الشارع مطفأة. أفكّر: لو أبقى هنا. أسير طلوعاً باتجاه الشارع الرئيسي. رذاذ خفيف يعاود الهطول، يبرّد الحرارة التي أختزنها جسدي بفعل التدفئة الخانقة. لا أذكر في أي موقف تركت سيارتي. أشعل سيجارة، أستند إلى حائط دكان مقفل. أدخّن متأملاً الأنوار البعيدة للمستشفى. الداخلون إلى المستشفى قلائل، من هنا يبدون صغاراً، لعلهم أطباء أو ممرضون. أتذكّر المرّة الوحيدة التي أتيت فيها إلى المستشفى نفسه مع ريتا. كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً. كان عصراً صيفياً، لا أذكر منه سوى أن ابن ناصر ابتسم حين حملته ريتا، واستغرب يومها الجميع كيف يفعل ذلك وعمره لم يجاوز اليومين. ينطفئ عقب السيجارة ما إن يلامس الأرض الرطبة. المارّة يقلّون، كذلك السيارات. صوت سيارة إسعاف تتجه نحو مدخل المستشفى. المطر يطرطق فوق ظلة الحديد التي أحتمي تحتها. منذ نصف ساعة لم أرَ أحداً يدخل أو يخرج من المستشفى. لا أدري لِمَ أمكث في وقوفي. بعد قليل سيكون عليّ أن أتحرّك باتجاه سيارتي، لم يبقَ معي سوى سيجارة واحدة.

أفقت على رنين الهاتف. رفعت السماعة دون أن أفتح عينيّ فعلاً. كانت يارا. علمت من بكائها. سألتها متى؟ السادسة صباحاً، قالت. أقفلت السماعة. أردت أن أعطّل اليوم وفي الأيام التالية لأبقى معها في المستشفى. الآن لم تعد هنا.

عندما أفكّر بريتا أراها كما كانت في الثامنة عشرة. أذكر كنزتها الطويلة الشبيهة بالمعطف، حذاءها المخملي الرمادي. حقيبة يدها. كانت كبيرة من قماش سميك تميل لجهة اليمين بسبب ثقلها. تسير مائلة على الدوام. تضحكها تعليقاتي كأن أسألها إن كانت بائعاً جوّالاً. تقول ماذا لو احتاجت شيئاً؟ نهاراتها الجامعية طويلة. «الحقيبة الدكان» نسمّيها. نسألها عن فتاحة قناني، عن طلاء أحذية. نقول أكيد معك منها في حقيبتك. مرة أخرجت قنينة كونياك صغيرة، وضعتها على الطاولة أمامنا في الكافيتريا، أضاف الجميع منها إلى فنجان قهوته. يحلو لناصر أن يصفها بالخوتاء. يروق له أن تجارينا نحن الشباب بشرب الكحول والتدخين.

«ألا تعمل حساباً لأحد؟ كأنها مقطوعة من شجرة. ألا يسأل عنها أهلها؟» يقول .

سلسلة صدف غريبة أدّت إلى تعارفنا.

كنت أمرّ برمزي. آنذاك كان طبيباً متمرّناً. عشرون ساعة متواصلة وهو يعمل في الطوارئ. زحمة المرضى المنتظرين شغلته عن

وجودي. جلست على مقعد بجوار ريتا التي لُفّ إصبعها بشاش تبقّع بالدم. دون أن أسألها التفتت نحوي لتخبرني كيف شقّت إصبعها بغطاء واحدة من المعلّبات حاولت فتحها بالسكين. «أتظنّ أنه سيحتاج إلى تقطيب؟ أم سأعطى إبرة كزاز؟ أخاف كثيراً من الأبر، من الدم أيضاً. ربما لن أشعر بوخز القطب، يضعون بنجاً، صح؟ لم أردْ أن آتي. كل الناس يجرحون أنفسهم لكنهم لا يهرعون إلى الطوارئ، لكنّ أختي (أشارت باتجاهها) خوّفتني».

كانت أختها تتجادل مع الممرضة. الضجيج والفوضى منعاني من سماع ما تقولان. عندما اقتربت أختها يارا منّا، قالت ريتا مشيرة إليّ: «هو قال إنني لا أحتاج لا لأبر ولا لتقطيب. الجرح سيشفى وحده». التفتت يارا لتواجهني: «هل أنت طبيب؟» قلت: «لا» أضافت بنبرة حادة: «إذاً احتفظ بنصائحك لنفسك». ثمّ انصرفت ثانية نحو الممرضة. أخفتْ ريتا فمها بيدها المجروحة وضحكت ثم اعتذرت مني. ذكرتْ اسمها. لكنني أنا لم أفعل. كنت أحاول أن أخفي غضبي، ألام على كلام لم أقله؟ نهضت عن المقعد. قلت لرمزي أن يمرّ ببيت ناصر حين ينتهي لأننا سنسهر عنده ونتعشى. لم ألتفت جهتها.

بينما أقود السيارة تملّكني الضحك. سقط الغضب عني تماماً. بعد أكثر من شهر التقيت بها بينما أدخل إلى بناية. كانت تنزل الدرجات بسرعة. حاذيتها، لم يظهر عليها أنها تعرفني. «ريتا؟» استغربت. ذكرتها مرتبكاً بلقائنا. ابتسمت دون أن تتخلى عن حذرها. قلت إنني أزور خالتي المريضة، تسكن في البناية. أجابت: سلامتها. لم تقل يومها إنها تسكن في البناية نفسها. استأت من نفسي، أكان عليّ أن أكلّمها؟ رجعتُ خطوة إلى خلف عندما كلمتها كأنني سأهاجمها.

بعد أقلّ من أسبوع في شهر كانون الأول رأيتها تنتظر في القاعة. جئت لأشاهد فيلماً دعت إليه الهيئات الطلابية لدعم الصليب الأحمر.

رغم تخرّجي منذ أكثر من سنة، استمرّ ترددي مع ناصر على الجامعة لأن بعض أصدقائنا لا يزال طالباً.

نأكل مثلهم في الأفران والمطاعم القريبة من جامعتهم، نذهب إلى سهراتهم، نزورهم في مبناهم الداخلي أو في الشقق التي استأجروها لاحقاً. بقينا كالطلاب لأننا لم نعمل بعد. ناصر لا يريد أن يلحق بوالده الذي استقرّ في السعودية. يؤجّل الأمر مردّداً «موت أحمر هناك».

كانت تنظر إلى الملصقات، تقف قربها فتاة أخرى. تظاهرتُ بعدم رؤيتها أو معرفتها. هكذا بينما نشرب البيرة التي لففنا تنكاتها بمحارم، نقرتْ كتفي. قلّدتُ نظرتها المستغربة. قالتْ: «مرحباً هذا أنت؟» لم تكن تعرف اسمي. في تلك المرة بدت مختلفة عن السابق كأنها فتاة أخرى، لا أثر لفرحها وطاقتها ولا لعدائيتها وبرودها كما في المرة الثانية. ثمة شيء مختلف، لا أدري ما هو. قد تكون النظرة. ربما الهدوء. جلسنا في مقاعد متقاربة. تدبّر ناصر أمره ليجلس قرب صديقتها جوانا. استمرّ حديثهما طوال ساعتي العرض.

تبادلت مع ريتا كلاماً قليلاً. فهمت أنها تحبّ السينما كثيراً، حكيت لها عن بعض الأفلام التي شاهدتها في ناد يعرض فيلماً كل أسبوعين. لم أقل لها بأنني لم أقصده منذ شهور .

هكذا صرنا نلتقي كل أسبوعين. أحببت دهشتها أمام الأشياء الجيدة والجميلة، ربما لأنها في الثامنة عشرة. كانت تدرس في كلية الحقوق. لم تحبّ دراستها. أكملتها متذمّرة من موادها الجامدة

وأساتذتها المتحجّرين. ثم رحت ألتقيها كل يوم تقريباً. مع أصدقائي، وحدنا. تزورني في البيت، رغم خجلها لا تكترث لنظرات أخواتي ولا لفضول أمي. وحده أبي يردّ عليها تحيتها كأنها ضمن المشهد اليومي المألوف. لم يخطر ببالي أن أجنّبها هذه المشقة. كل ما أردته حينها أن نكون وحدنا في غرفتي.

قبل أن نتزوّج، انتبهت إلى أمزجتها المتناقضة. أقول لها كأنك مئات الفتيات في شخص واحد. ظننت أنّ لعمرها علاقة وأنها بينما تكبر ستشبهني أكثر. لا أذكر أننا تشاجرنا في تلك الفترة. أكثر شخصين خرجنا برفقتهما هما ناصر وجوانا. لكن شجارهما على كل شاردة وواردة دفعنا دون اتفاق إلى تجنّبهما. وحدهما يحلاّن مشاكلهما بشكل أفضل كنا نقول.

ألححت عليها طويلاً لتدعوني إلى بيت أهلها. رفضت، سكتت عن الكلام كأنني شتمتها أو أهنتها. لم أعد لذكر الأمر إلا بعد فترة. «أعرف أين تسكنين، ذات يوم أدقّ بابكم وأتعرّف على عائلتك. ماذا تفعلين، أتطردينني؟ سأسأل خالتي عنكم. أليست جارتكم؟» كلام يغضبها حقاً. هي التي لا تعاتبني على قول أو فعل. تعاديني ما إن أذكر رغبتي بزيارتهم.

قال ناصر حين أخبرته إنني لا أصرّ على زيارة أهلها إلا لأنها رفضت. لو طلبتْ مني لتهربت بألف حجة. لم يكن يعرفني حقاً وإلا لما افترض ذلك.

بقيت على عنادها. لم أتعرّف عليهم إلا بعد زواجنا «خطيفة» .

منذ انفصلنا رأيتها مرات قليلة، في الفترة الأولى خصوصاً حين نقلت أغراضها. لم ترد أن تأخذ شيئاً سوى ثيابها. حتى الأغراض التي قدمتها عائلتها لها بقيت هنا. الألبومات، لم تأخذ منها صورة

واحدة. الرسائل التي تبادلناها عندما عملت في الخليج. غطاء الصوف الذي حاكته جدتها لها عند ولادتها. كل أشيائها موضبة في صناديق، فوق التتخيتة.

قالت ريتا إنها تريد أن تنتقل إلى مكان جديد، عندما عرضت عليها البقاء في الشقة بعد انفصالنا.

الشمس تغمر الأغطية بلونها الأصفر. الأمطار تهطل دون توقف. ستكون جنازتها ماطرة. الآن عندما أغمض عيني لا أرى الصورة القديمة. بل جسم ضئيل فوق سرير يصارع أشباح عالم خفي عنا. لا أشعر بقوّة في جسدي لأقف.

فكرت أن أتصل بأنطون أو بجوزيف. ربما حضور أحدهما يمنع تدفق هذه الذكريات.

للحظة أظنّ أنّ الذهاب للعمل أفضل لي. لكن كيف أفتح فمي للكلام .

جالس في سريري. الغيم يعتم الغرفة ثانية. الجوّ أسود والعالم يموت ويتلاشى.

أجلس قبالة التلفزيون. أداوم على كبس الأزرار متنقلاً بين القنوات الإخبارية. لا شيء. أمور مكرورة. أستمرّ في البحث. أقرأ الشرائط الإخبارية أسفل الشاشة. نوع من الخيبة يستقرّ في نفسي. أطفئه. أتوقّع أن أسمع أو أقرأ في الشريط الإخباري عن ريتا. كأنّ ذلك ممكن. قصصت نعيها في صفحة الوفيات. طويت الورقة، دسستها داخل محفظة نقودي. لم يُذكر اسمي بين الأسماء. زملاؤها وأهلها نعوها. بعد وفاتها، اتصل بي أصدقاء وبعض الرفاق القدامى. منهم من غابت عني أخباره عشرات السنين. كأنني وضعت رأسي فجأة داخل خلية نحل. كل كلمة تلسعني. من أين تتدفق هذه الذكريات.

هذا الأحد أطول من العادة. لأنني استيقظت باكراً. العطلة ثقيلة دائماً على قلبي. غالباً ما أجعلها تنقضي بسرعة. بعد ليلة سهر أطيل النوم إلى ما بعد الظهر. رغم ذلك أنهض مستغرباً منقبض القلب. أحبّ أن أذهب إلى عملي كل يوم. لا يهمّ أن أجلس ساعات أمام شاشة الكمبيوتر لتصميم تفصيل واحد في قنطرة الشرفة أو درابزينها. لكن عملي في معظمه يكون خارج المكتب. أذهب لمعاينة الأبنية والمحلات والمكاتب والمدارس للاتفاق مع أصحابها. الفريق الذي أعمل معه يتبدّل باستمرار. هناك دائماً مهندسون جدد أو متدربون يحلّون مكان القدامى. خبرة القدامى تفسح لهم فرصاً أفضل خارج

الشركة. منذ ثلاث سنوات بدأت تتراجع أعمالنا. اتفاقيات تلغى. مستحقات لا تدفع. ألمح صاحب الشركة إلى خطّة لتقليل النفقات واستبدال المهندسين بخريجي معاهد مهنية. يذهب بحماسه بعيداً إلى حد يُقنع نفسه أنهم أكثر كفاءة واجتهاداً من المهندسين المتباهين. تقلّص عدد المهندسين إلى أكثر من الثلثين. من بقي يشكو من عبء الأعمال المطلوبة. أفضّل العمل مع المبتدئين لا يهمني حذرهم. أحبّ اندفاعهم في أوّل وظيفة لهم، يجهدون لإيجاد أفكار مبتكرة. بعدها تهمد حماستهم ويزداد تذمّرهم. القدامى يكرهون الجدد، يزعجهم إقبالهم على العمل، يسخرون من سذاجتهم. يؤدبونهم بإقصائهم بعيداً عن استراحاتهم وغداءاتهم وأسرارهم. لا أقضي الكثير من الوقت داخل الشركة، آتي في آخر النهار لأرى عمل الفريق. قد يطول الأمر قبل أن نتفق على التصاميم والخرائط، خصوصاً إن كان من نتعامل معه شخصاً صعباً. بعضهم يطلب أموراً يستعصي تنفيذها. أذكّره أننا لسنا سحرة.

مؤخراً يحصل أن يفلس من عقدنا معه اتفاقاً. لذلك كثرت الأملاك التي حجزت عليها الشركة. قضايا قضائية تطول وتطول. «لا سيولة». هذا ما يكرّره مسيو أندريه. ضجرت في الآونة الأخيرة من سماع الشكوى نفسها. يسألني ناصر لِمَ لا أعمل معه ومع أخيه كما فعلنا في الثمانينات.

أقول إنني ما عدت أفهم في هذه المسائل. لم أعد صغيراً لأقف في أماكن وعرة تحت الحرّ وتحت المطر. ثم إنّ مسألة الدخول في مزايدات ومناقصات مع الدولة أمر متعب .

منذ فترة ما عادت رفقتي ممتعة. لذلك انحصر خروجي مع الزبائن. بعضهم يصرّ على دعوتنا إلى المطاعم أو الفنادق التي

يملكها أو حتى إلى نوادٍ للقمار والمراهنة. مُسيو أندريه يلبي عادة هذه الدعوات برفقتي. أما شريكه الآخر فشبه غائب كأن لا علاقة له بالشركة. في إحدى عشرة سنة لم ألتقِ به إلا مرتين. هذا الشريك الخفي مريح. أعماله ومشاريعه الكثيرة في دبي تبقيه غائباً.

الرماد تناثر خارج المنفضة. أفسح بإصبعي فراغاً لأطفئ عقب السيجارة، كأنها غابة من جذوع يابسة. لديّ أعمال أنجزها. لكنني لا أجد لا القوّة ولا التركيز. الوقت لا يزال باكراً لتناول الغداء. الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة والربع. كم يلزمني لأتحضّر؟ أستحم وألبس ثيابي في ثلث ساعة؟ من يأكل في هذا الوقت؟ في داخلي طاقة رغم وهني. أحسّ أنّ بإمكاني أن أركض دون توقف لأيام. ماذا لو اخترت مطعماً بعيداً عن بيروت؟ ما الذي يؤخرني؟ لا شيء. قدت السيارة على مهل. الشمس تظهر بين الغيوم خلف غلالة شفافة. تزدحم الطرقات شيئاً فشيئاً. الناس نهضوا من نومهم الطويل. الطقس صحو بعد ستة أيام ماطرة. أحاول أن أتذكّر الطريق التي عليّ أن أسلكها. هناك مطعم سمك قديم أكلنا فيه مرات خلال حرب التحرير أو الإلغاء لا أدري أيهما.

ربما لم يعد للمطعم وجود. ما أتذكره هو واجهته الزجاجية وكراسيه المخمل الحمراء .

كنا كثراً استأجرنا شاليهات وبيوتاً ريفية بدائية التجهيز. جزء كبير من النهار ينقضي في السباحة وفي التمدّد على الشاطئ وشرب البيرة. نسينا القذائف التي تسقط على الأحياء السكنية، أعمالنا التي توقفت، بيوتنا التي تركناها كأنّ الأمر يحدث في مكان قصي لا يهمنا. وحدها ريتا كانت تحاول كل يوم أن تجد هاتفاً لتطمئن على أهلها. لكن الخط إما مقطوع أو ينقطع قبل أن تطلب الرقم كاملاً.

المشاوير التي كانت تسعدها هي نحو الجبال والقرى البعيدة العالية. أسخر من اندهاشها. أقول إنني شخص مديني يفضّل مشهد شارع مكتظ بالسيارات على الأشجار والأنهار والهدوء. عندما أظهر ضيقي من صمتها ووجومها، تبذل جهداً لا يدوم إلا لوقت قصير ثمّ تعود إلى كتاب تقرأه. لم تكن كذلك دائماً. أحياناً يجرفها احتفالنا، تبدأ مثلنا بالشرب منذ الصباح. أذكر طرف شفتها العليا يرتعش عندما يغضبها أمر. الماضي الذي عاشته أثقل عليّ أيضاً، كأنني أعيش تحت غيمة سوداء، تنقشع لتحلّ مكانها غيمة أكبر. انقطع عملها عندما توقفت المحاكمات والقضايا. زملاؤها وجدوا وظائف في المصارف، في التعليم، في الإدارة. هي لم تفعل. قالت إن التعوّد على نمط وأناس جدد غير ممكن.

رغم اختلافها كانت قريبة من معظم رفاقنا. خصوصاً زوجة رمزي. لأضحكها، كنت أحشر رأسي بين رأسيهما، أقاطع انغماسهما في الحديث سائلاً: «ماذا تحكيان عني»؟.

لم يكن لدينا أولاد. وكذلك رمزي، لكن بعد سبع سنوات ومحاولات عدة من التلقيح الاصطناعي رزقت زوجته بثلاثة توائم. غالباً ما تأخذهم الأحاديث باتجاه الأولاد في سهراتنا. خصوصاً النساء. فتنقسم السهرة تلقائياً إلى سهرتين. سكنا ثلاث أو أربع عائلات في تلك البيوت والشاليهات الضيّقة. تسبب ذلك بضيق وخلاف يتطوّر ليصبح قطيعة موقتة كما حصل بين عائلة عدنان ومي.

النزاعات في معظمها سببها الأولاد. «عدنان يترك أولاده يتصرّفون بحرية، لا يضع لهم أية حدود، سلمان عصبي يفسد علينا الجوّ بصراخه المتواصل على أولاده، كأنه ليس أباً بل مدير ميتم متحجّر القلب» هكذا تصفهم مي فتثير زوبعة من الغضب

والاعتراضات. «ما دخلك أنت بأولادنا؟ ثم ما أدراك بالأولاد وأنت عزباء، من أعطاك الحق لتتفلسفي علينا وتعلّمينا أصول التربية؟».

الأولاد كبروا. بعضهم تزوّج. سنوات لم ألتقِ فيها برمزي أو فادي أو عدنان. أما مي فأراها أحياناً كل أسبوع، أو قد تمرّ سنة دون أن نلتقي، لكننا على اتصال دائم.

لديّ قدرة على حفظ الأمكنة والطرقات. يكفي أن أقصد مكاناً مرة واحدة حتى أتذكّر تفاصيل كثيرة تتعلّق به وبمحيطه وبالطرق المؤدية إليه. لكنني اليوم على عكس عادتي. لا أحسّ أن الطرقات مألوفة. أسير على مهل علّني أجد ما أستدل به.

عندما قطعت تلك القرية علمت أنني لم أتِه. أذكر جيداً المبنى المهجور المستطيل. صار الآن أكثر تصدّعاً وقِدَماً.

لمحت بضعة أشخاص في المطعم بينما أركن سيارتي. الدرب المرصوفة بالحصى، استبدلت بدرب من الباطون الأملس. الكراسي ما عادت مخملية، إنها من قصب الخيزران. اخترت طاولة صغيرة في الزاوية مواجهة للبحر. الروائح التي تحملها الأمواج كريهة لا تثير الرغبة في الأكل. ألقي نظرة سريعة على الوجوه حولي. كلهم كبار مثلي، تجاوزوا الخمسين. على الطاولات أمامهم صحون فيها بزورات وجزر، كؤوس العرق ترشح ماء ندياً. الوجوه ساهمة تنظر باتجاه البحر الهائج. أمواجه رمادية تفور وترتفع. تضرب الصخور. أجفل من رذاذها الذي يغسل الواجهة الزجاج بين الحين والآخر.

أنحدر في طريق فرعية. أرفع رأسي إلى الطابع الرابع. اللافتة القديمة نفسها لم تجدد. بعض الأحرف فيها محي واختفى خلف طبقة من الغبار. هنا تدرّبت وعملت ريتا. إنه المكان الذي عادت إليه دائماً لا يهمّ كم يطول تبطلها. ما إن تهدأ الأوضاع وتمشي الأشغال تعود إليه. أتخيّل سيرها في هذا الطريق، انزعاجها من ورشة البناء، من الحفارات. البوابة القديمة نفسها منذ عقود. أنظر إلى المدخل، إلى البلاط الأصفر. المصعد الذي لم تستخدمه أبداً. هواء بارد يطيّر غبار الورشة فيملأ عيني. يتأملني البواب الجالس على مقعد خيزران بلا ظهر، يحادث لحّام البناية. أخفض بصري. لن يعرفني، تبدّلت كثيراً عن تلك السنوات. ليس لأن وزني زاد. كل ملامح وجهي اختلفت. لا أشبه صوري القديمة. ريتا أيضاً تبدّلت. عرفت ممن صادفها من أصدقائنا. كنتُ أخشى أن ألتقي بها في الطريق ولا أعرفها. الفكرة تقهرني. هل يمكن ألا أعرفها؟ هي التي أحببتها على مدى خمسة عشر عاماً. أنلتقي كالغرباء. ربما لذلك كنت أطيل التحديق في وجوه يتراءى لي من بعيد أنها تشبهها إما في قامتها أو سيرها أو حركة جسمها.

قبل زواجنا لم تحكِ كثيراً عن عائلتها. تتجنّب استدراجي لها فتبدّل الحديث بأسئلة تطرحها عليّ. فيما بعد فهمت كم يصعب عليها إثارة تلك الذكريات، خصوصاً ما يتعلق بأخيها. أخوها الذي

يصغرها بأربع سنوات. منذ ولد تعلّقت به. لا تقبل أن يُغسل أو يطعم دون أن تشارك بذلك. تقول إنها تتذكّر شكله تماماً في شهوره الأولى. ابتسامته الكبيرة عندما تدغدغ بطنه. ينظر إليها بينما تخبره عن شيطنة دميتها كأنه يفهم حقاً. تبكي ليسمح لها بحمله وبالنوم قربه. عندما أُدخل المدرسة، تركت رفاقها لتمسك بيده في الفرص وتطعمه. تصعد خلفه ممسكة بمريوله حين يتزحلقان. تقول إنه بدا دائماً أصغر من رفاقه. نحيل، وجهه بلون الحامض ينظر إليها بعينين واسعتين. يشرق وجهه لحظة يلمحها قادمة نحوه. تعجب من اهتمام والدتها بدروسها هي لا بأخيها كأنها لا تكترث. تفلتُ منها عبارات تحيّر ريتا كأن تقول: يا حبيبي وبمَ سينفعك العلم؟ يارا الكبيرة مكثت بعيدة عنهما. اعتادت ريتا أن تقرأ له القصص، التي راح يطالبها بإعادة قراءتها عشرات المرات...

كلهم يكبرون وتصغر ثيابهم عليهم إلا هو، كأنه طفل أبديّ. لذلك سهل عليها أن تحمله عندما يتعبه المشي أو اللعب. كانت أمها تكرّر: ضعيه أرضاً، ليس لعبتك، ستبقين قصيرة إن حملته طويلاً. لكنها لا تأبه.

عندما مات والدها أخافته النساء السود المنتحبات. يحضنّه ويقبّلنه يتملّص هارباً. يخفي أذنيه بيديه كي لا يسمع الصراخ والبكاء يتعالى كلّما دخل قريب أو معزٍّ. رفعوهما لرؤيته في الصندوق الخشب مرتدياً بذلة وحذاء وربطة عنق. سأل ريتا بينما يختبئان تحت واحدة من الأسرّة «إلى أين يذهب بابا؟» قالت صار عصفوراً الآن، سيطير إلى السماء. هذا ما قيل لها حين سألت عن ساندرا أختها.

كانت أمّها تجفل عندما تسمع صراخه منادياً: «بابا جاء... بابا

جاء» العبارة التي كان يستقبل بها والده العائد من العمل. ريتا مثله تجلس على البلاط، وقد وضعته في حضنها بانتظار أن يعود الأب الطائر. لا يفهمان لماذا يُتعس ذلك يارا وأمّهما. يُنهران ما إنْ يعلو هتافهما الترحيبي. لذلك صارا يتكتمان على زيارات ذلك الأب الجميل الصغير، يقفز على أرضية أو درابزين الشرفة، ينظر نحوهما، ينقر شيئاً عن الأرض ثم يرتفع عالياً في السماء.

تكبر هي، يتبدّل جسدها. تخفيه بثياب واسعة. لكنّ أخاها لا يكبر فعلاً كأنه يستمرّ في سن السادسة. يلهث حتى ولو مشى من غرفة إلى أخرى. صارت أمها تؤنّبها كلما لاعبته، تقول: «لا تتعبي أخاك، لن ينام ليلاً» ثم انقطع عن المدرسة. ينتظر ريتا عند باب المدخل. يعرفها من وقع خطواتها. تحمله بين ذراعيها قبل أن تلقي حقيبة كتبها. هتافه باسمها يطلع من صميم قلبه. ثم بدأت تفهم ما يجري. لم تكن بحاجة لأن تسترق السمع. كيف يُخفى عليها أمر الفحوصات والأدوية واستدعاء الطبيب ليلاً، الطوارئ التي يحمل إليها فاقداً الوعي. تلفونات الأقارب، أسئلتهم، زياراتهم. تقول أخي، تخشى أن تلفظ اسمه. أشياء كثيرة لم أعرفها من ريتا، عرفتها أحياناً من أمها أو من يارا رغم ندرة زيارتهما لنا. الزيارات بيننا كانت متباعدة. حين تأتيان لا تطيلان المكوث، مزاحي معهما لا يخفف من تحرّجهما الدائم. تجلسان عند طرف الكنبة مستعدتين للنهوض. مرات كانت ريتا ترجوهما للنوم عندنا خصوصاً الأيام التي يقترب فيها القصف ويشتد. لكنهما لا تأبهان، تعودان دائماً إلى بيتهما. انتقلتا منه، البناية هدمت، قامت مكانها أخرى، فخمة وعريضة. شرفاتهما مزروعة بأشجار ونباتات موحدة. لم يبق من حيّهم القديم سوى بناء واحد تابع لإحدى الوزارات. وحدها

الحديقة القريبة تبعث الذكريات الماضية. أشجارها، سياجها، بركتها، كلّها لم تتبدّل.

المولّدات الكهربائية تهدر أمام المحال. يعبر المارّة إلى الرصيف المقابل هرباً من دخانها الأسود. تأخرت نصف ساعة. لكنها ليست مشكلة فناصر صديقي حتى لو كان موعدنا للعمل. يريد تجديد المكاتب. قال إنّ لديه فكرة وتصوّراً واضحاً لما يريده. المكاتب على حالها منذ أسّس والده الشركة في شبابه. قبل وفاته، تقاعد قبل الستين، ترك لأبنائه المتخرجين حديثاً مهمة إدارة الأعمال. رفض أن يستشيروه في أي أمر. قال إنه سينصرف لفعل ما يحبّ قبل أن ينتهي العمر.

كنت مع ناصر وعدنان في المدرسة نفسها وفي الصف نفسه. لكننا لم نصبح رفاقاً إلا في الصف الأول المتوسط. اتخذنا هوايات مشتركة، بدأت بالرياضة. لا تزال أمي تحتفظ بالميداليات داخل فيترينا. حزت عليها في السباق وفي القفز والسباحة. أسألها كلما وقع نظري عليها عن سبب احتفاظها بها وقد علاها غبار وصدأ أخضر ثم أنني صرت عجوزاً الآن. بعدها تبارينا في قراءة القصص البوليسية. من القارئ الأفضل؟ عدنان يربح دائماً، إذ يقرأ ثمانية كتب كل أسبوع. استمرّ شغفه بالكتب. أرشدنا إلى الكتب السياسية والفلسفية. نحن لم نفعل سوى اللحاق به. ندخل الحزب نفسه. ننشق عنه لنفعل مثله ونختار آخر ونتبنى عقيدة جديدة. يقرّر متى نشارك في مظاهرة ومتى نعادي ونواجه أخرى. أوّل من حمل بيننا علبة سجائر. عندما فعلت مثله ثار أهلي. جُنت أمي مرددة «ألا يكفي أبوك؟ ألا تسمع سعاله؟ لا ينام ليلاً» كانوا يظنون آنذاك أن أضرار التدخين تنحصر فقط بالسعال. ثم ما عاد بإمكاننا مجاراته.

بقي على حبّه للكتب، يدفعه إلى ذلك أيضاً عمله كأستاذ جامعي. زوجتي الثانية لينا لم تحب عدنان. قالت إنه متعالٍ، تسايره فيتجاهل كلامها. لم أخبرها عن صداقته بريتا ولا عن الحديث الذي جرى بيننا عندما أخبرته بأنني سأتزوج لينا. كلامه باعد بيننا. بعد زواجي الثاني التقينا مرة جاء فيها وحده دون زوجته. وفي الثانية كان برفقتها عزّياني بوفاة والدي. المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها كانت بعد وفاة ريتا. استرجعنا شيئاً من الودّ القديم. علمت أنه أجرى مؤخراً عملية قلب مفتوح. يتعافى الآن ببطء. هناك أمور يخشى القيام بها. كالأكل، والجهد والسهر. أما العودة إلى العمل فتبدو له الآن كأنها مستحيلة. يمشي بعناء شديد الساعة المطلوبة منه، «ماذا نفعل؟ كبرنا». يقول.

كأنها ليست البناية نفسها. التبدّل لم يلحق واجهاتها الخارجية بل مداخلها وأدراجها أيضاً. في ذاكرتي كانت أرحب وأفخم وشديدة النظافة. المرايا في المدخل مبقعة كأن ألف ذبابة قد حطّت عليها. كيف يدفع مبالغ طائلة لتحديث مكاتب داخل بناية مهترئة؟ أهو الحفاظ على إرث عائلي؟ لم أشعر لا قبل ولا بعد وفاة أبي بما يشعر به أصحابي. أعطتني والدتي دفاتر لأبي كان يكتب فيها أشعاراً ويوميات. لا أذكر حتى إن كنت لا أزال أحتفظ بها.

المصعد معطّل. أتسلّق الأدراج المعتمة. أتجنب التمسك بالجدران كأنها مبقعة بأمراض خفية. تقوى الرطوبة في بعض الطوابق. عند الزوايا يتجمع الطلاء المقشور. رائحة بول تفوح بين الطوابق. أتوقّف طويلاً. السعال يشق صدري. أنظر إلى النافذة الزجاج، خلفها تظهر شجرة صنوبر ضخمة. فاجأني أنها لا تزال هنا. لم تيبسها لا الحروب ولا التلوث ولا الزبالة.

لو أن الأدراج نظيفة لكنت جلست لألتقط أنفاسي. وخز شديد في صدري يشتدّ، كطعنات الخناجر أو كتلك الأسهم الطويلة الرفيعة. تخترق أضلعي وترتدّ إلى ظهري. الهلع يضاعف ألمي. «ماذا لو متّ هنا وحدي؟».

أنتظر مي لتمرّ بي. تجمّع الموظفون في الزاوية الشمالية للمكتب. وضعوا طعامهم فوق أحد المكاتب وتحلّقوا حوله. روائح طيبة وأبخرة حارة تتصاعد في الجوّ. إنْ صادف وجودي في المكتب أثناء استراحة الغداء أُدعى لمشاركتهم. الدعوة خجلة تزيد من إحساسي بفارق العمر بيننا. لو أنجبت أولاداً لكانوا في مثل عمرهم أو أكبر حتى. يأكلون في البداية دون أن ينسوا حضوري، ثم يبدأ حديثهم خافتاً.

أخيراً يرن الهاتف. رقم مي. أسرع لموافاتها. ندمت لأنني قبلتُ مرافقتها. فكّرت ألف مرة أن أتصل متحججاً بشيء ما استجدّ في اللحظة الأخيرة. لكنّ مي تعرفني جيداً. رغم فارق السن البسيط بيننا، تعاملني كأنني أصغرها بأكثر من عشر سنوات، أو كأنها تكبر وحدها وأستمرّ في العمر الذي عرفتني فيه. غالباً ما تردّ على كلامي بادئة عبارتها «ما أدراك أنت». مع الوقت تقبّلت ذلك، لم أعد أقاطعها أو أردّ عليها بلؤم. لم تكن مي لا جارة ولا زميلة عمل ولا رفيقة لنا أثناء الدراسة. كان أخوها جورج هو صديقنا. نحبّ الذهاب إلى بيتهم. والده يسهر معنا ويقدّم لنا المشروب. أمه تعدّ أطيب سندويشات ومخللات. حين يطول السهر يضع جورج الفرش في غرفة الصالون الواسعة، ننام متلاصقين حتى يطلع الصباح. ننهض وقد تركت بنطلونات الجينز خطوطاً حمراء مؤلمة كالحروق

فوق جلدنا، خصوصاً عند الخصر. نشتم القهوة بالحليب تعدّها أمه، روائح الخبز المحمّص والزعتر وعجة البيض. نتحلّق حول طاولة المطبخ. حتى من اعتاد ألا يفطر لا يفوّت عليه هذه الفرصة. الأب يشاركنا الأكل واقفاً، مكملاً نقاشه السياسي بالأخص مع عدنان. الأم لا تشارك في الأحاديث، يفرحها كثيراً مدحنا للخبز والطعام الذي تعدّه. كانت مي بعيدة عنا في تلك الفترة. تعاملنا على أننا رفاق أخيها الصغير، لا بدّ أن ننال مثله ضربة على الظهر أو قرصة في الزند أو كلمة ساخرة. ننظر إلى صديقاتها الجميلات، نتمنى لو كنا أكبر لنحظى منهن بأكثر من ابتسامة. في الجامعة، صار عدنان مسؤول خلية حزبية. وجدنا أنفسنا بما في ذلك مي نشارك في مظاهرات. نضرب خلالها. بعضنا اعتقل وذلّ مراراً بالضرب والشتائم. جورج وناصر بقيا بمنأى عن نشاطاتنا السياسية.

كان موقف ناصر مفهوماً بالنسبة إلينا. لكن ما نستغربه هو جورج. كم حسدناه على والده وتمنينا أن يتمتع أهلنا بعشر وعيه وتفهمه. أقنعه عدنان مرة بحضور اجتماع للخلية ليسمع بنفسه كم النقاشات غير مضجرة. ليلاً راح جورج يكرّر ما قاله الأعضاء، ليس حرفياً يختار منه المصطلحات الحزبية والشعارات، مضيفاً كلمة رفيق بينها. أطول لحظات عذاب في حياته، هكذا يصف تلك الجلسة الحزبية. يقلّد النظرات التي كان يُرمق بها من الرفيقات كارهات البشر، يقول. ما عاد أحد بعد ذلك يستدرجه إلى أي نشاط له علاقة بالسياسة. أما مي فتخلت عن مظهرها الأنثوي، تجول مع رفاقها على المصانع لتوعية العمال. نقول لها إن العمال آخر ما يهمهم الصراع الطبقي، لكنهم لن يفوّتوا عليهم تأمّل فتاة جميلة والاجتماع بها.

بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت خسر جورج عمله. سافر ليكمل

الدكتوراه في هولندا التي حصل على منحة من إحدى جامعاتها. أراد أن يسافر إلى أميركا لكنه لم يحصل على قبول جامعي. سفره أصابنا جميعاً بالحزن. كان بالإجمال صامتاً، منصرفاً إلى كأسه في الجلسات، لكنه كان مضحكاً في تسخيفه لكل ما يحمّسنا أو يهمنا. رغم ذلك، استمرّ ذهابنا إلى بيت أهله. ولو بشكل متباعد. والده لم يعد مرحاً.

أخبار جورج نعرفها من مي التي صارت فرداً من الشلة. عندما نتأخر في السهر تنام عندنا. تزوّج جورج وعمل هناك. عندما توفي والده لم يستطع أن يحضر بسبب المطار المقفل. ما عاد بإمكان مي النوم خارج البيت كالسابق، كيف تترك أمها وحدها. صرنا نجتمع في بيتهم، لكن جلوس الأم بيننا رغم لطفها يثقل علينا. ننتبه لما نقول. لا شتائم، لا نكت في حضورها، لا مبالغة في الشرب. التدخين يثير سعالها. عندما نرفض اقتراح مي بالسهر عندهم تزعل، تسأل «أليست أمي لطيفة، أنتم لا تعرفون يا زعران كم تحبكم» ثم تصفع رقبة أقربنا إليها.

في بداية التسعينات أرسل جورج دعوة لأمه لتقوم بزيارته. ظننا أنها لن تصمد لشهرين، مي فكّرت مثلنا. لكنها راحت تمدّد إقامتها مرة تلو المرة. لاحقاً ستقول لمي إنها بقيت لتحصل على الجنسية الهولندية. «اسمعوا هذه الحجة، صبية حضرتها في أول شبابها، ما حاجتها للجنسية، لتقل إنها تريد البقاء قرب ابنها حبيب قلبها» تقول مي. ثم فتحت الأم شراكة مع امرأة لبنانية محلاً صغيراً يبيع المناقيش والفطائر والكبة المقلية، شجعها جورج على ذلك لتتسلى، ثم هناك الكثير من اللبنانيين. استمرّت في عملها حتى وفاتها بسكتة دماغية. دفنت هناك.

زمور سيارتها يزعج الناس. خرج بعضهم من محله ليرسل نحوها نظرة عتاب لئيم.

- «ما بكِ؟ لمَ هذا الزمور؟»

بينما أغلق الباب، تقول كأننا نستأنف حديثاً سابقاً:

- هذه الموظفة الجديدة، ستطيّر عقلي. أغبى من التي سبقتها. لو وضعت أي واحد من الشارع مكانها لتدبّر العمل أفضل منها. من أين يا ربي تسقط عليّ هذه المصائب؟

- لماذا شغّلتها؟ من ألزمك؟ ألف من يتمنّى أن يعمل.

- هكذا يُهيأ لك. وضعت إعلاناً في «الوسيط»، لافتة على باب المحلّ. أتصدق أن هذه الساذجة أفضل من تقدّم. على الأقل تحمل شهادة بكالوريا.

- ستتعلّم مع الوقت. كم يصعب البيع وكل الأغراض مسعّرة؟

- أهذا عملي برأيك؟ بائعة؟ دون أن تقول للزبون تاريخ ومنشأ كل قطعة، كيف تريدني أن أبيع؟ نحن نتاجر بقطع فنية لا قطع غيار.

- ما بك، لست زبوناً لتحكي لي عن قطعك الفنية... لنعد إلى حديثنا البارحة. فكّرت فيه، لم أجد فعلاً ما يقلقك، لم يقل لك الطبيب إن هذه الغدد أو لا أدري ماذا تسميها دليل سيئ، مجرّد احتمال...

أسكت عندما لا ألقى منها تجاوباً. الإيشارب المعقود حول رقبتها يظهر أكثر التجاعيد الكثيرة في عنقها الأبيض.

- أتظنّ أنهم سيؤخرونني؟

- ألم تأخذي موعداً؟

- بلى، لكن تعلم هذه مستشفى. التأخير وارد دائماً. أردت أن

أشكرك حقاً. لم أعلم كيف أتصرف. بصراحة أخاف مواجهة الأمور وحدي.

- أليس من الأفضل أن تصطحبي امرأة؟

- لماذا؟ ألأنها فحوصات نسائية، من تصطحب المرأة المتزوجة برأيك؟

القاعة التي انتظرنا فيها تعج بالناس. يقدّمون أوراقهم ثم ينتظرون دورهم. لم أجد مكاناً لأجلس، وقفت قرب مقعد مي. أشرت لها بغضب إلى شخص جاء بعدنا ونودي عليه قبلنا. «انظرْ إليه، أيبدو لك أنه جاء من أجل صورة للصدر؟».

كان العرق في جبينها بارزاً ينبض. وجهها ورقبتها تبقّعا بلون داكن. داومتْ على تأمّل أصابعها. أنظر إلى الممرضات يظهرن خلف الواجهة الزجاجية. تفتح إحداهن الباب تنادي اسماً ثم يواريها ممر خفي. أخشى أن أدعها لأدخّن في الخارج. لم أسمع اسمها، رأيتها فقط تلتفت نحوي، بينما ينغلق الباب خلفها.

بناية مي لم تتبدل كثيراً. واجهتها جدّدت وطليت بلون زهري. أما حديد شرفاتها فطُلي بالأبيض. لم تفكّر بالانتقال إلى بيت آخر ليس لأنه للعائلة بل لأنها كما تصف نفسها كسولة جداً ثم لا تجد أي فائدة في التخلي عن بيت فسيح لتسكن في شقة ضيقة حديثة. عدا أقمشة الكنبات والستائر البيت يشبه نفسه كما كان منذ أكثر من ستة وثلاثين عاماً.

لم أرد أن تزعل لذلك قبلت دعوتها على العشاء. رعبها من الفحوصات وبكاؤها بعد النتائج الجيدة لا يشبهها حقاً. لم أفتح الموضوع معها ثانية كي لا أحرجها. قالت إنها تريد أن تحتفل معي خصوصاً أن زمناً مضى لم نلتقِ فيه على عشاء.

في المدخل، تذكرت ركضنا على الأدراج، الجلبة التي نحدثها في زياراتنا لجورج. ندخل عليه في غرفته، لا نهتم إلى أنه نائم. نحك أنفه، نداعب شعره، يفتح عينيه. «أريد أن أنام، يا أولاد الكلب» يصرخ بنا .

كنت أول من تزوّج. عندما انتبهت أم جورج إلى أن الزواج لم يبدّل في حياتنا، قالت: بدل أن تنقصوا واحداً زدتم واحداً.

أحمل قنينة ويسكي معتّقة. أتيت بها من البيت. لم أجد لا الوقت ولا الصبر بعد يوم طويل لأفكّر بهدية. الأمر برمته محيّر. الحلوى، يستحيل أن أشتريها بما أن مي ممتنعة عنها. تسمح لنفسها بأكلها في

مناسبات قليلة. المشروب أفضل الحلول دائماً. إنها الهدية الوحيدة التي أحملها لكل الناس. خلال زواجي كنت معفى من هذه المهمة. أعلم أن الويسكي ليس ما تفضّل شربه، لكن هذا ما توفّر عندي. بينما أصعد الدرج تمنيت ألا تكون دعت واحدة من صديقاتها. لا أظنها ستُقدم على ذلك إذ تعلم ضمناً أنّ لا ودّ بيننا.

جلسنا على الشرفة الشتوية. الستائر المخملية السميكة مسدلة. المكان يبدو ضيقاً جداً. أحسّ كأنني أختنق. أسارع لفتحها. تشير مي بإصبعها إلى الشقق قبالتنا. أقول في العتمة والبرد لن يقف أحد على شرفة مفتوحة ليتأملنا. أبذل جهداً لآكل رغم أنها حضّرت طبقاً مكسيكياً أحبه. بعد الظهر طلبت سندويشات أكلتها في المكتب بينما أعمل. أحسّ حتى الآن بالتخمة.

نشرب كؤوسنا صامتين. كانت ريتا تتعامل بحذر مع مي أول تعارفهما. تجدها كثيرة الكلام والصخب. توطدت علاقتهما حين غبت سنة لأعمل في السعودية. صارتا مقرّبتين حينها.

أذكر كيف كنا نمدّ على أرضية هذه الشرفة حصيراً ووسائد. المنفضة في الوسط. القنينة لصق الجدار. خشية أن نكسرها.

نتشارك في دفع ثمنها. الكؤوس أمامنا. ننظر إلى السماء. إلى المدينة السوداء. لا ضوء إلا ما ترسله الانفجارات من حين لآخر. الكلّ اختفى. تختنق الأصوات كلها وتُوارى تحت الأرض. انتقل الجميع إلى الملاجئ. سيارات عسكرية تعبر الشوارع بسرعة، تصدم كل ما يعترض طريقها، كلاب، هررة، سيارات مركونة. تترك أم جورج الملجأ مراراً لتأتي وتقنعنا بالنزول. نقلب الموقف إلى مزاح، نقول لها: خذي جورج معك إن أردت... قال قبل قليل إنه خائف.

حين تعنف الاشتباكات لا أحد يتكلم. حين يقترب صوت الرصاص نهمس لبعضنا «هس» كأن حديثنا هو الذي يقود الرصاص إلينا. مي هي التي حوّلت الشرفة غرفة مقفلة بجدران من زجاج.

خلال عملي في السعودية كانت ريتا تنام أحياناً في بيت مي. تكتب لي عن ذلك. تشاهدان أفلاماً كثيرة على الفيديو. في العطل تقصدان مناطق جبلية. ليس وحدهما. خصوصاً إن كانت المشاوير بعيدة. عدنان وزوجته يلبّيان دائماً هذه الدعوات. هكذا يخرج الأولاد من سجن الشقق للعب في الهواء الطلق ولركوب الدراجة.

كثيرة الرسائل التي تقتصر على وصف للأمكنة والطبيعة التي تتعرّف عليها دوني. كانت رسائلها تحزنني. تضاعف من ضيقي هناك، من الذين أعمل معهم دون أي رابط بيننا. لا شيء يجمعنا سوى تأمين المشروب بأسعار مقبولة نسبياً.

أوقع رماد سيجارتي فوق السجادة، تسبقني مي لتنظيفها. ننظر كلانا إلى شاشة التلفزيون. لا أنتبه للصور المتعاقبة عليها. أحياناً تعلّق مي على ضيوف البرنامج منتقدة سذاجة الأجوبة. عندما يتضاعف غضبها، تنتقل إلى برنامح آخر. أساعدها في جمع الصحون وحملها إلى المطبخ. أرفض الفاكهة. نتوقف عن شرب الويسكي لنشرب كأس كونياك. عيناها غارتا واحمرّتا. ما عاد يبين منهما إلا شق رفيع كأنها نصف نائمة. تحدثني عن ركود عملها. كثرت المحلات المنافسة. كثر اهتدوا إلى الأسواق الصينية، والهندية والفيتنامية.

يأتون بالبضاعة رخيصة ويغرقون بها الأسواق. تقول إن ما تشتريه من سوريا والأردن واليمن والبقاع من بسط وسجاد وأعمال يدوية يكلفها غالياً. البضاعة مكومة عندها في المستودعات دون أن تنقص.

تفكر في مشروع نتشارك فيه، لكن الفكرة لم تكتمل بعد. أردّ على الفور: تعلمين مقدار فشلي في التجارة، عليك أن تفكري بغيري. ثم لست وجه سعد على حد علمي.

نضحك إذ نستعيد الذكرى نفسها. أشاعت ريتا بأن كل شيء يتعقد إن كان لي علاقة به. هكذا صرت وجه السعد الذي يستجلب الحوادث والمعاكسات والحروب بالنسبة للجميع.

أنظر عبر الباب إلى السجادة. عليها جلست ريتا، تشاهد أفلاماً، تكتب لي لاحقاً كم ذكرها أبطالها بي. تكتب عن أحاديث تجري في غيابي. عبثاً أطلب منها ألا تثقل على القادمين إلى السعودية. أقول إن معرفتي بهم سطحية. لكنها تحملهم إضافة إلى الرسائل، أطعمة أحبها، ثياباً، كتباً وشرائط موسيقى. كنت أترك الكتب والشرائط داخل الأكياس. إن لم يستعرها أحد تبقى حتى أرميها في قاع الخزانة. عرفت ريتا في سنة أكثر من عشر سنوات مضت قبل ذلك، كأنها في الرسائل شخص مختلف. أما ما كنت أكتبه فلا يتجاوز الصفحة. أحتار ماذا أخبرها. سطر واحد يكفي لوصف حياتي المتكررة دون أيّ تفصيل إضافي.

تغفو مي، ينحني رأسها ويتدلى خارج المقعد. أوقظها لأودّعها. تخجل، تعتذر متحدثة عن الجهد العصبي الذي عاشته مؤخراً. لأخفف عنها أدّعي أنني غفوت مثلها.

أخلع ثيابي وأنا لا أزال في الممر. أتمدد بسرعة تحت اللحاف كي لا يهرب النعاس. كل مفصل في جسمي يؤلمني. لا أدري كم تقلبت قبل أن أغفو أخيراً.

عند الفجر، أيقظني كابوس، شربت كوب ماء. بقيت جالساً في الفراش. أخاف أن أنام ثانية. الكوابيس تفسد نهاراتي أيضاً. يحصل

لي سواء كنت أمشي أو أقود سيارتي أن أصاب بذعر. أفكر بأنني لن أراها أبداً تمشي في هذه الشوارع.

رأيت أنني أقود سيارتي القديمة. السوبارو البيضاء التي بعتها منذ زمن بعيد. الطرقات أليفة. لكنني أعجز عن تذكرها . جوزيف على المقعد قربي يدخّن متأملاً أسراباً من الناس يمشون على جوانب الطرقات الضيقة. لا نفهم سرّ وجودهم فجأة ولا إلى أين يتجهون. نصعد في طرقات جبلية وعرة. الجبال كلسية بيضاء. يختفي الناس. لا أحد. لا بيت. لا طير. لا شجر. لا سيارة. أبطئ في الصعود. السيارة تجد صعوبة في مثل هذا الارتفاع. أركنها عند سفح تلة. نقرر إكمال الطريق سيراً. تزداد حدة الارتفاع كأن الدرب تصير عمودية كلما توجهنا نحو الأعلى. نسمع نبض قلبنا ولهاث أنفاسنا. نتكئ على بعضنا بين الحين والآخر لنرتاح. يستمرّ الخواء. لا بشر ولا طبيعة. بعد منعطف يبين بيت مطلي بالأبيض. حوله مساحة فارغة تتوزّع فيها أحواض لكن لا زرع فيها بل حصى ملساء. تمتد بينها دروب ترابها شديد البياض كالبودرة. الحديقة الفارغة مسيّجة بجدران واطئة لا تخفي البيت عن الأعين. يجفل جوزيف عند رؤية البيت. يتبعد إلى الجهة الأخرى. أتحرك باتجاه البوابة الحديد. يمسك جوزيف بذراعي كي يمنعني. لكنني أتملص منه. أفكر أنني أعرف هذا البيت. لا أتردد في فتح بوابته. أعبر الحديقة. أصعد الدرجات الثلاث، أدق الباب الخشب. لا أحد يفتحه. أدير مسكته الخارجية. أدخل. أرى أناساً كأنني أعرفهم، ذاكرتي لا تسعفني.

أخطو خطوات بطيئة حتى أصل وسط القاعة. حينها أرى ريتا تسير بخفة كأنها لا تزن شيئاً. وجهها استطال وتورّم تحت عينيها. تجعيدتان كحفرتين عند جانبي الفم. العينان كبيرتان جداً. نظرت

نحوي فيما تكمل سيرها السريع. اقتربت أكثر حاذتني للحظة. ابتسمت لي ابتسامة حزينة. أردت اللحاق بها لكنها اختفت.

أرى وجهها مراراً، أستعيد تلك النظرة، تلك الابتسامة التي أعرفها جيداً.

الغيوم كثيفة. تظهر الشمس خلفها بيضاوية. شاحبة كأنها عليلة. الريح تطيّر الشال حول رقبتي. تشدّني به إلى الأمام. رائحة الكشك والزعتر وسخونة العجين. أمرّ بالفرن ككل صباح. أدخل إلى الدفء. أشتري فطائر سبانخ صغيرة. ذلك أفضل من المناقيش الكبيرة. قال الطبيب علي أن أخسر بعضاً من وزني. الضغط والكوليسترول عاليان. أظنه بالغ في تقدير الأخطار. ربما يريد إخافتي فقط. قليلة هي الأشياء التي تقيّدت بها. أختي لا تدخن ولا تشرب ولا ضغط عمل تواجهه. لكن لديها «كوليسترول». في الأيام الأولى امتنعت عن أكل المطاعم وعن السندويشات. صرت أعدّ طعامي في البيت. أتذوقه فأفقد شهيتي. لا طعم له حتى لو أكثرت فيه التوابل. خيّل لي بعد الأسبوع الأول أنني فقدت وزناً. بنطلوناتي لم تعد ضيقة. أنظر إلى كيس الورق. أفتحه. آكل بينما يحملني المصعد إلى الطابق السادس.

الوجوه مسمّرة إلى شاشات الكمبيوتر. أجد مسيو أندريه في مكتبي. أستغرب مجيئه المبكر. أمدّ كيس الفطائر نحوه. يشكرني فيما يده تعبث بالقداحة الذهب. يداوم على فتحها وغلقها. لا أبادره بأي كلام. آكل على مهل قضمات صغيرة. يرتبك. اعتاد أن أكون الطرف المحدّث. أنهض من مكاني لأملأ كوب ماء. يقوم بدوره عن الكرسي الجلدي. يقف إلى النافذة متأملاً مداخل السينما المغلقة.

لم أخبره شيئاً عن زعل المهندسين. منذ سنتين وهم لا يتاقضون أية نسبة من الأرباح أو أية مكافأة في ختام العام. يقولون إنه حقهم القانوني. لا أرغب في سماع تقرير عن السوق وانعدام السيولة وأمور أخرى. تكلم مواصلاً التحديق إلى الخارج. قال إن شريكه يواجه مشكلة حالياً في دبي. المشاريع التي تعهدها توقفت. استثمر الكثير من ماله في تحديث المعدات وتوسيع طاقم العمل لديه. هذا عدا الديون للمصارف. الفرصة الوحيدة الآن هي في قطر. قبل مشاريع فيها، لا بل وّقع العقود. يرى أن إقفال الشركة في لبنان هو الحل. بعد انتهاء العقود، نفتح الشركة هنا من جديد. يريد أن أساعده هناك. سوف يحسّن راتبي ويعطيني خمسة بالمئة من الأرباح. عليّ أن أقنع المهندسين والتقنيين بالسفر. المشكلة الوحيدة أن رواتبهم ستبقى على حالها. لكن إن سار كل شيء كما يجب سيعطيهم علاوة.

لم أقل شيئاً. مسحت آثار الزيت عن أصابعي. أشعلت سيجارة. ها أنا أفقد عملي. لم أقضِ مثل هذا الوقت الطويل في أي عمل سابق. سأفتقد المكان، فكّرت.

قلت إن السفر لا يناسبني. فاجأه جوابي كأنه لم يتوقعه أبداً. قال لن يقبل رفضي للعرض. ادّعى أنه جاء سريعاً، وأنني بعد تفكير سأجد أنها فرصة لتأسيس شراكة مستقبلاً بيننا. ثم أردف: عليك إبلاغهم بالعروض الجديدة.

- هم موظفوك وأنت رئيسهم. بلّغهم بنفسك.

استغربت نبرة صوتي. لست غاضباً لأكلّمه بهذه الحدة.

عند الظهر كانت أغراضي كلها في كيس. لم أودّع الموظفين. تركت في الأدراج أغراضاً كثيرة تكدست على مرّ سنوات العمل.

أقلام ذهبية. قداحات. آلات حاسبة قديمة. مسبحة اشترتها لي زوجتي لينا لأشغل نفسي عن التدخين. عبوات مزيل رائحة، قناني حبر. شفرات وعدة حلاقة صدئة. قصاصات ورق. وجدت بينها لائحة أغراض. مسحت الغبار عنها. كيف وصلت إلى هنا؟ كنا مطلقين حينها. قد أكون وجدتها في أحد جيوبي فرميتها في الجارور.

أقرأ مراراً ما عليها، جبنه حلوم 1/ 2 كيلو. أوقية ونصف موزات. قنينة زيت زيتون. علبة لبن. إنه الخط الصغير نفسه. أطويها على مهل. أضعها في محفظتي.

أقود لوقت طويل. لا وجهة أقصدها. ألحق السيارات أمامي. أختار أحياناً الاتجاهات غير المزدحمة. زخة مطر قوية، يتبعها طلوع ساطع للشمس.

دائماً أحببت العمل. الآن عليّ أن أجد شيئاً يشغلني. غريب أن أجد نفسي متبطلاً بعد تسعة وعشرين عاماً من العمل. في بداية زواجي تدبّر لي خالي العمل في شركة سويسرية للبناء. قال إن علي تقديم طلب بأسرع وقت. عندما ينتشر الخبر، لن تكون لدي فرصة بما أنني دون خبرة. تحتاج الشركة إلى مهندسين اثنين لتمثيلها. في أقل من أسبوع بدأت عملي. بدا غريباً. صحيح أن للشركة مكتباً. لكن لا دوام أتقيد به. كنت أشبه بسمسار، لم يفدني بشيء علمي وتخصصي في الجامعة. أقابل عملاء محتملين، أقنعهم بالمواد التي تروّج لها الشركة من دهانات ومواد لعزل الصوت أو منع النش وأشياء كثيرة غيرها. الشركة تغطي نفقات العشاءات والغداءات التي يُدعى إليها الزبائن. على مدار سنة ونصف كنا نأكل في المطاعم، نجرّب الإيطالية والفرنسية واللبنانية والحانات. كل ما عليّ فعله

تقديم الفاتورة مختومة وموقّعة من المطعم. في آخر كل شهر أستعيد ما دفعته. لكن تلك العشاءات بقيت محصورة في بدايات الشهر إذ لاحقاً يقلّ مالنا ويبدأ التقنين.

كانت أمي تقول إننا نعيش كالهيبيين. كيف نؤسس عائلة وكلانا لا نشعر بأية مسؤولية، وننصرف إلى طق الحنك. لم يكن والدي أفضل منها، لكنه يعبّر عن امتعاضه بالصمت والتجاهل. أو يقول كلاماً ملغوماً يدفعني إلى الامتناع عن زيارتهم لشهور.

بعد الاجتياح أقفلت الشركة. اكتفينا بمال قليل نستدينه من هنا أو هناك. أما ريتا فكانت قد تخرجت لتوها ولا تعمل بعد. تضحكنا الحسابات التي نقوم بها لنؤمن الضروريات. استغنينا طويلاً عن شراء قارورة غاز لأن ثمنها مرتفع. نأكل سندويشات باردة أو عند أمّها التي راحت تكثر من دعواتها لنا على الأكل. تقول إنها طبخت أكلات تحبّها ريتا. استمرّ تبطلي ستة أشهر أو أكثر بقليل. بعدها وافقت دون تفكير على عرض ناصر بالعمل معه. ريتا أيضاً لم تعترض. سلمنا مفاتيح بيتنا لفادي. استقرّ فيه كي لا يحتله أحد في غيابنا.

كان ذهابنا إلى الجنوب يشبه السفر. ساعات طويلة من الانتظار والتفتيش على الحواجز الإسرائيلية الكثيرة. ناصر أتى دون زوجته وابنتيه الصغيرتين. في البداية نمنا عند خالته. لم يكن أمراً مريحاً. ثم وجد لنا ناصر بيتاً صغيراً عن طريق عاملين في الورشة. أمهما الأرملة هي صاحبة البيت. أثاث قليل فيه. سريران وخزانة حديد، في غرفة الجلوس صوفتان عريضتان، رفاصهما جديد. في المطبخ غاز برأسين وبراد عراه الصدأ. كان علينا أن نشتري كراسي وطاولة. كنا نفترش الأرض في الأسبوع الأول، لنأكل. نمدّ جريدة لنضع

الصحون فوقها. استغربت المكان. مهما بلغ تعبي مداه نهاراً، لا أغفو ليلاً. كلما تحرّكت أحدث الرفاص الحديد صريراً يسمعه الجيران. كانت الفرش مشبعة بالغبار، أعطس كلما لامست غطاء أو ملاءة. ريتا على خلافي أحبت الفسحة أمام البيت وحوض الزرع الذي نبتت فيه أعشاب برية. ثم هناك كرم صغير قربنا فيه كرمة وزيتون. ما أزعجها أن الأرملة تسكن قريباً. تحملت ريتا عبء زياراتها.

العمل في شوارع المدينة لم يكن أمراً سهلاً. أحياناً تتوقف الأعمال في عزّ النهار إن حصلت عملية عسكرية ضد الإسرائيليين. نساق مع عمالنا للتدقيق في هوياتنا أو إلى الاستجواب. كانت ريتا تسير نهاراً في الحقول المجاورة، ترتاح تحت زيتونة أو شجرة تين، لكن نزهاتها لم تدم بسبب حملات التمشيط التي تعيدها إلى البيت مذعورة. صار ناصر ينام عندنا أكثر مما ينام عند خالته. نشتري في عودتنا إلى البيت بيرة أو ويسكي، زيتوناً، وبعض اللحوم الباردة. نتعشى في الخارج، ونسهر حتى وقت متأخر. كل شيء بدائي في حياتنا آنذاك. لم يكن لدينا سخان ماء. تضطر ريتا إلى استخدام الطناجر لتحضير حمامنا كل يوم. تغسل الثياب بنفسها.

أكثر ما أضحك ناصر أنه أفاق ذات صباح ليرى الديك في الغرفة يتأمله. كان دائماً يتسلل من عند الأرملة إلى بيتنا ما إن نفتح الباب. تقول الأرملة لريتا: «ماذا أفعل به، معجب بك، يحبك».

أصعب الأيام تلك التي يذهب فيها ناصر إلى بيروت. يفعل ذلك مرة كل شهر. لكنه يغيب لأسبوع أو لعشرة أيام. أنوب عنه أثناءها. تخرج ريتا مثلي صباحاً من البيت، تحب أن تمشي قبل أن يصحو الناس. عندما تتأخر في النوم تمشي جهة البلدة حيث المحلات

والحياة المدينية والمتاجر. كنا نحن جهة ما يسمونه الضيعة القديمة. في سهراتنا نحكي عن بيروت كأنها في أقاصي الأرض.

نتذكر رفاقنا الذين لا يصلنا منهم سوى حكايات وسلامات يحملها ناصر. الاتصالات الهاتفية مع بيروت مقطوعة تماماً. نحتفل بعودة ناصر. ندفعه لمعاودة سرد ما سمعه من أخبار وحكايات مراراً وتكراراً. تلك الفترة بدّلت علاقتنا به. لن يهمّ كم نغيب، كم يمضي وقت. نراه فنذكر تلك الأوقات القديمة.

بعد سنة ونصف عدنا وبقي ناصر. انضمّ إليه أخوه الأصغر وقد تخرّج بدوره. كان العمل شاقاً كأنه سيدوم للأبد. نترك الحفر العميقة والقساطل وسط الشارع أياماً قبل أن يسمح لنا بالعمل لساعات.

عند رجوعنا إلى بيتنا أحسسنا أننا غريبان. الحياة استمرت في غيابنا. رفاقنا منهم من أغرم، من تزوج. وجوه جديدة في الشلة.

لزمنا وقت لنسترجع الألفة القديمة. لكن بقي في أعماقنا إحساس بأننا كبرنا في غيابنا ومكثوا هم على حالهم.

ريتا وجدت مكتباً تتدرب فيه وأنا وجدت عملاً مع شركة مقاولات.

أنعطف عائداً عندما أصل إلى جبيل. البحر عن يميني مخضر، موجه صاخب، يرافقني عبر الشباك صوته الرتيب.

تنظر إلي بعينيها الواسعتين. أحسّ بأنفاسها تلفح وجهي. طرف إصبعها فوق جبيني. لا تتكلم. تبتسم وقد لوت رقبتها. شاحبة بلا لون. نظرتها تنفذ إلى أعماقي. أفتح عيني. الضوء يعميني. صور لبراندو شاباً على الشاشة. الثانية بعد منتصف الليل. أرتجف من البرد. غفوت في ثيابي دون غطاء. رأسي ثقيل. كأن آلاف أسياخ الحديد تخترق جمجمتي في اللحظة نفسها. أنهض نحو الحمام. وجهي مفزِع في مرآة المغسلة. ذقن نابتة، وجه ممتقع. تجاعيد حفرت عميقاً في جبيني، حول عيني، وعند الفم. شعري الأبيض طال وذهب في كل اتجاه. لا أجد القوة لأخلع ثيابي. اسحب غطاء الصوف عن السرير. أعود للكنبة. أصبّ ما تبقّى في قعر الزجاجة. أبتلع قرصي إسبرين، أتبعهما بجرعة ويسكي.

كانت في بيجاما لا أزال أذكرها. لونها أصفر فاتح. على جيبِ قميصها بطة مطرّزة بالأزرق والزهري والأصفر الغامق. ارتدتها لسنوات حتى رقّت. عنما تألف شيئاً من ثيابها تداوم على ارتدائه غير آبهة بموضته إنْ ولّت. كانت أختي تقول: «أليس لديها ثياب غير هذا البنطلون؟».

الاشتباكات في حيّنا دفعتنا مرة إلى الهرب إلى بيت أهلي. ليس بيت بيروت بل آخر استأجروه بعيداً عن المدافع وشحّ الماء والخبز والغاز. مع مرور السنين امتنع أهلي عن النزول إلى بيروت. باعته

أمي لاحقاً بعد وفاة أبي. لم تعترض ريتا عندما اقترحت عليها حزم أغراضنا والبقاء عند أهلي حتى تهدأ الأوضاع. كان موت جارتنا قد أثّر فيها ومنعها من النوم. هي أوّل من هرع باتجاه بيتها بعد أن تعالى صراخ ابنيها. وجدتُها في جلستها إلى طاولة المطبخ. أمامها صينية عليها عدس، تقوم بتنقيته. لولا الدم الذي كان يتدفق من ثقب في رقبتها ليلطخ ثيابها ويملأ الصينية أمامها، لبدت مستمرة في ما تفعل. طلقات نار بعيدة، كيف تفلت واحدة لتباغتها في جلستها؟ استمرّ صراخ ولديها أعلى حتى من الطلقات التي راحت تقترب وتتحول إلى انفجارات. الجيران تراكضوا ناسين ما أتوا لأجله. غفلوا عن المرأة وولديها وهرعوا إلى مخابئهم في الملاجئ أو في الحمامات أو فوق الأدراج. لم ترد ريتا أن تترك الصبيين. لم يتجاوز كبيرهما السادسة. حملت الصغيرة وجرّتْ الثاني بيده. لكنه رفض مردداً: «والماما ألن نأخذها؟» أقنعته بأنها ستعود لاحقاً لأخذها، وإن أمه ستجدهما شاطرين لأنهما ذهبا معها. الصغير الذي لم يفهم شيئاً من الحديث استمرّ في بكائه وصراخه، يرفس خاصرة ريتا. ظلّ كذلك حتى غفا. بعد عودة والدهما، بقيا في بيتنا ليومين. كأن والدهما نسي أمرهما تماماً. أنمناهما أرضاً على فراشنا. الصغير لا يغفو إلا ممسكاً بخصلة من شعر ريتا. الكبير توقف عن البكاء. ما عاد يتكلم أو يجيب عن أسئلتنا. لا يأكل شيئاً. حتى كوب الحليب، يروح يتأمله دون أن تمتد يده نحوه. لذلك حزمت أمري دون أن أستشير ريتا، طلبت من الأب أن يأخذ ولديه إذ إنهما رغم المحنة يحتاجانه هو لا غريبين عنهما.

لم تخف أمي انزعاجها حين رأت ثيابنا الموضبة في الأكياس. قالت إن الاشتباكات في كل مكان ولا تتوقف، لو ترك الناس

بيوتهم لهذا السبب لما بقي إنسان في بيته. الغرفة التي خصصتها لنا هي في الأصل شرفة واسعة وعريضة، حوّلتها إلى غرفتين يفصلهما جدار من زجاج سميك. الأولى فيها سرير وخزانة والثانية المحاذية غرفة للغسيل. قلت لريتا بينما أرمي الأكياس فوق السرير إن الأمر لن يتعدى بضعة أيام ونعود إلى بيتنا. كانت تقضي معظم الوقت في الغرفة الضيقة. لا تغادرها إلا برفقتي. تستيقظ أبكر من العادة، عند الفجر أحياناً، ترتدي ثيابها. تجلس عند طرف السرير. تتأملني نائماً. تنتظر أن أستيقظ. لا تجرؤ على مخالطتهم دوني. قد يدوم انتظارها لي أكثر من أربع ساعات. كنت أحسّ بنظرتها. أفتح عيني فألمح ابتسامتها. تمرّر يدها فوق جبيني. لا تدخل الحمام لتستحم إلا بعد أن ينام الجميع. لا تهتم لبرودة الماء ولارتعاشها. المهم عندها ألا أطلب تشغيل السخان فأحرجها. أراها لا تأكل غير لقمات قليلة وتشبع. عندما مرّ بنا عدنان بعد أسبوع وعرض علينا المكوث في بيته مع أسرته، لم نتردد لحظة في القبول. كل مرة أرى فيها أهلي أحتاج لوقت طويل لأتعافى منهم.

أمي أحبّت زوجتي الثانية لينا. تتحادثان كأنهما أم وابنتها. تحثني لينا على زيارة أهلي. تشتري الهدايا دون أن تهمل أية مناسبة. على الأقل فعلت ذلك طوال أربع سنوات. ثم توقفت عندما فقدت الأمل مني. أذكر ما قالته أمي عندما علمت بطلاقنا. ألقت المسؤولية كاملة عليّ. فأنا من يرفض أن يؤسس عائلة وأتصرّف بطيش كأنني مراهق، أشرب وأدخّن وأسهر مع رفاق لا يحترمون زوجتي. قبل انفصالي عن ريتا بأربع سنوات التقيت بلينا حين كنت أقوم بترميم مكتبين تابعين للشركة التي تعمل فيها. لينا هي المدير التنفيذي. لاحظت على مدار اجتماعاتنا اهتمامها بي، حرصها على إبداء

إعجابها بعملي. بداية رأيت الأمر نوعاً من المجاملة. ثم راحت زياراتِي تزداد وتيرتها. أبقيها على اطلاع لكل شاردة وواردة تتعلق بعملية الترميم. لاحقاً أسترجع نظراتها، لمسها لذراعي أثناء كلامنا، كلماتها المبطنة، فرحتها ما إن تراني. أحاول إبعاد هذه الأفكار، لكنها تعاندني وتملؤني سعادة، حتى إنني اتبعت نظاماً غذائياً لأول مرة، خسرت الوزن الزائد.

اشتريت ثياباً جديدة. كأن تلك الخيالات بعثت في روحاً جديدة. لا أطيق العطل الأسبوعية التي تفصلني عن لينا. كان يحدث لي أن أخجل من ريتا. كأن نظرتها تتسلل إلى داخلي في لحظة وتكشف ما أجهد في إخفائه. غيابي عن البيت في أوقات غير معهودة لم يدفعها لمساءلتي. أعود متأخراً، أجدها مستغرقة في أوراق نثرتها حولها. قلّ كلامها، وبدت بعيدة. كانت تحيّرني. في لحظة أحسّ أنها تعرف كل شيء. وفي أخرى تبدو بعيدة عما يشغلني. كل الذرائع التي أجهد في اختلاقها كأنها لا تسمعها. لذلك بتّ أكتفي بالقول بأنني خارج في موعد عمل. لا أسمع منها تعليقاً. تودّعني كعادتها ممسكة درفة الباب. تنتظر حتى يواريني المصعد لتغلق الباب. كنت ألتقي لينا في بيت أختها الجبلي شتاء، أو في مكاتب الشركة الخالية مساءً. لا نشعل الأضواء كي لا نثير ريبة الحراس. نستخدم مصباحاً خافتاً. ثم صرت ألتقيها في بيتنا عندما تكون ريتا في عملها. لم أفكر بالغد. كل ما كان يهمني آنذاك أن أرى لينا. عندما تعاكسنا الظروف ولا نتمكن من الالتقاء، أمكث في البيت معتكر المزاج، أغضب لأقل كلمة ولأتفه سبب. حين انفصلت عن ريتا، فكرت أنها ربما أرادت أن يحدث ذلك. لماذا لم تعترض. قالت إنها حزرت ما يجري. لماذا سكتت إذاً. لم يخطر لي أن علاقتي بلينا ستنتهي بالزواج. لم أخطط لأي مما

حصل، وجدت نفسي متزوجاً من امرأة ثانية فيما أستمر بيني وبين نفسي بمحادثة زوجتي الأولى ريتا، حديثاً لم يتوقف.

لينا أرادت أولاداً. صحيح أنها تصغرني بثماني سنوات، لكن ليس بإمكانها الانتظار، متى تنجب؟ لا تريد أن يكون فارق العمر كبيراً بينها وبين أولادها.

ليت بإمكاني أن أعيد البيت إلى ما كان عليه قبل أن تبدّل لينا كل شيء فيه. في أحلامي أستعيد البيت القديم، أرضيته البلاط، جدرانه الرمادية، حمامه الأزرق القديم، سقفه العالي، شبابيكه وأبوابه الخشب.

لا فرق عندي بين الليل والنهار. لم يمض على تركي العمل إلا أربعة أيام. رغم ذلك الفوضى تعمّ حياتي. أنام عندما تطلع الشمس، أستيقظ أول العتمة. لم أخرج طوال الأيام الماضية. البراد فارغ. حتى المشروب نفد من الخزائن. يلزمني أن أنظم حياتي، أن أجد عملاً. أتذكر حديثي مع مي، أطرد فكرة العمل معها. أكيد ستعرض عليّ أمراً له علاقة بالبيع والشراء. التجارة مهنة لا تناسبني.

في السنة التي قضيتها مع ريتا في الكويت، رفضت عروضاً كثيرة لأنها تعتمد على التجارة، قبلت بوظيفة متواضعة لكنني أفهم فيها. ريتا لم تحصل على تصريح عمل، لذلك مكثت في البيت. مع الوقت تعرّفت على عائلات لبنانية، راحت تعطي أولادهم دروساً خصوصية، يأتون تباعاً إلى بيتنا فترة بعد الظهر، ما إن يرحل آخر تلميذ حتى أعود من العمل. ثم زاد عدد تلاميذها ليشمل كويتيين. مساءً كانت تعاود قراءة بعض الدروس خصوصاً في المواد العلمية. تسألني عن معادلة فيزيائية أو رياضية. أقول: «لا أذكر». تضحك ظناً منها بأنني أمزح.

- «صحيح، لا تعرف، وليس اختصاصك الهندسة».

أبحث في خزائن المطبخ، أجد قنينة نبيذ قديمة، يغطيها غبار كثيف. الطعم غريب يشبه خل التفاح، لا أدري إن كانت فاسدة أم أنني ما عدت معتاداً على طعم النبيذ. أفتح علبة فول وحمص، أسكب محتوياتها في صحن، أرشّ فوقه الملح. آكل واقفاً إلى المجلى. أتأمّل العتمة تنفذ من الشباك. أرى البيوت مظلمة. رجل يدخل إلى مطبخه، يفتح البراد، يتناول قنينة ماء، يكرع منها. كيف يشرب ماء بارداً في عز الشتاء؟

لمبة البراد لا تظهر منه إلا جذعه، كأنه مقطوع الرأس، لا طعم للفول بارداً وبلا زيت، أو حامض. أدعه بعد أوّل لقمة.

بروق متلاحقة تضوي السماء للحظة. أمجّ السيجارة مجة أخيرة، يقوى الغثيان. أتناول قطعة خبز، ألوكها على مهل، في العادة تزيل الحرقة.

الدواء الجديد أعاد الضغط إلى معدّله الطبيعي. لولا الدوار، ما قصدتُ الطبيب. كأنني أتلاشى. العالم تخفت أصواته. يرتجف الفضاء. يرتج دماغي كأن زوبعة رياح تهب بين تلافيفه، تُطيّر أجزاءه، تتراقص ببطء في جمجمتي كندف الثلج. يستمر تزعزعي طويلاً.

الدوخة أسوأ الأعراض بالنسبة إليّ. أحتمل نزيف الأنف، التعب، الغثيان، خفقان القلب، جفاف الفم. أما الدوخة فتخيفني. كأنني أصير شخصاً مفككاً، أطرافي مفصولة عن جذعي. طلب الطبيب إجراء فحوصات شاملة. قلتُ إن سبب الضغط إسرافي مؤخراً في التدخين والمشروب. أصرّ رغم ذلك على الفحوصات والتحاليل. يعلم أن سكوتي لا يعني موافقتي. اعتاد عليّ. يعرفني منذ أكثر من عشرين سنة. الألفة بيننا جعلت تحذيراته أقل وطأة، كأن الودّ بيننا يبعد المخاطر. لم أنتبه لما يقوله عن الأعراض الجانبية للدواء الجديد. كنتُ في عجلة من أمري. اتفقت مع جوزيف أن ألتقيه نتغدى سوياً. أسبوع بلا عمل جعلني أكبر سنين .

جوزيف اقترح عليّ أن أفتح شركة صغيرة كالتي كنت أعمل فيها. أستعين ببعض الموظفين القدامى الذين لم يسافروا مع مسيو أندريه. سيساعدني في الحصول على قرض من المصرف الذي يعمل فيه. سبق له وفعل الأمر نفسه عندما جدّدت بيتي وأثاثه. رغم أن جوزيف

يكبرني بأربع سنوات يبدو في الواقع أصغر مني. يحافظ على وزنه. عندما يجارينا في إسرافنا يمتنع بعدها لأيام عن المشروب والأكل ليلاً. جوزيف صديق أنطون في الأصل. كلاهما من الشمال، تعلما منذ صغرهما في المدارس نفسها. كان أنطون يعمل معي في السعودية. تعرّفت عليه هناك. نشأت بيننا علاقة لطيفة لكنه لم يلبث أن انتقل بعيداً عن جدة إلى الدمام. عدتُ والتقيت به صدفة بعد سنوات. كنت في معرض برفقة لينا. استغربت الفرح الذي أظهره لرؤيتي. عندما أخذ رقم هاتفي ظننت الأمر مجرد مجاملة. لكنه بعد أيام، اتصل ودعاني إلى بيته في الشمال. عادة لا ألبّي دعوات كهذه، فمن يحتمل القيادة لساعات من أجل دعوة وجّهها شخص بالكاد أذكره. لكنني بعد زواجي من لينا ابتعدت عن صداقاتي القديمة. لينا لا تريد أن تدخل في منافسة مع صورة ريتا، لا تحب أن تُقارن بها. وأنا ما عدت أحتمل الجفاء واللوم الخفيين من أصدقائي. كلانا نحتاج إلى صداقات جديدة. تحمّست لينا للدعوة. وجدنا أنفسنا في بيت على تلة عالية، منفرد. على الشرفة العريضة، تسمع سقسقة الماء يجري في الوادي. أنطون أعدّ بنفسه كل شيء بما في ذلك المخللات والزيتون. لعائلته أراضٍ شاسعة مزروعة عنباً وزيتوناً وفاكهة. لديه شركة مقاولات ناجحة. الفضل كما يقول عائد لعائلته الغفيرة العدد ولمعارفه الكثر. في تلك المرة، كان قد دعا جوزيف وزوجته وابنيه. أما عائلة أنطون فلم تكن في لبنان. الأم تعيش مع البنات الأربع في كندا. لن يترك بناته وحدهن، يقول. أن يكنّ في الجامعة لا يعني أنهنّ كبرنَ كفاية. ظننت بداية أنه منفصل عن زوجته وإلا كيف يحتمل هذا البعد. يسافر مرة واحدة في السنة. أما بناته وزوجته فلا يأتين إلا مرة كل سنتين. الكبيرة بدأت تعمل

في المستشفى، يقول. لكنها كل يوم تحكي معه بالتلفون. كذلك تفعل بناته الثلاث. يقول ذلك بفخر شديد. لم يدعنا يومها نعود مساء إلى بيروت. قال إن الغد أحد وعطلة فلِمَ العودة إلى بيروت؟ بيته واسع وفارغ والمناخ جميل «وأكلي طيب» أضاف ضاحكاً. يوم الأحد استبقانا حتى المساء. القيادة بعد مغيب الشمس أفضل، قال. بعد ذلك صار اجتماعنا في أواخر كل أسبوع تقليداً. خلال الأسبوع كنا ندعو جوزيف وعائلته. لقاءاتنا الأولى بدت رسمية ربما لوجود ابنيه المراهقين. ما كانا يشاركاننا أياً من أحاديثنا، يظهران انزعاجهما دون مواربة أو يتبادلان الغمز والنظرات عندما يريدان السخرية مما نقول. لذلك ارتحنا عندما امتنع عن اصطحابهما. يقول إن لديهما امتحانات. لاحقاً لن ترافقه زوجته. نعتاد على مروره بنا وحيداً. قد نخرج أو نبقى في البيت. غالباً ما تنتهي السهرة وكلانا على الكنبة قبالة التلفزيون، أمامنا كؤوسنا، لينا تنسحب وتنام. لم يكن الصمت بيننا ليزعجنا. لكن حين يكون أنطون معنا يحلّ الصخب والضحك العالي. دائماً هناك ضيوف جدد وأخبار وقصص. لا يتعب من الحكي. ينسى ما سبق وأخبرنا إياه. يعيده بطريقة مختلفة. قد يكون هو بطل القصة وفي مرة أخرى يقول إنها جرت مع صاحبه. كثيراً ما تكون هناك امرأة في ضيافته. قد نراها لشهور أو لمرة واحدة. عندما تختفي إحداهن عن جلساتنا، لا نسأله عنها، كأنها لم تكن.

مع الوقت بات يزعجني هذا العدد الهائل من الضيوف. امتنعت عن الذهاب كالسابق. حين أفعل تقول لينا أنا أذهب وحدي. أفضّل بيته في الشتاء حين يقل عدد ضيوفه ويتحول الوادي إلى بحيرة بيضاء تنتصب فيها تماثيل ومنحوتات ثلجية.

في السنوات الأخيرة تبدل أنطون كأنه لم يعد الشخص نفسه.

السكّري الذي أصابه، أضرّ بكليتيه. حرّم عليه الطبيب كل ما يحبّ. عليه الاكتفاء بنوعي خضار، بقطعة صغيرة من اللحم، لا ملح، لا سكريات، لا شيء. السكري أفقده مرحه وصخبه. يتحدث طويلاً مع زوجته وبناته خصوصاً وأن السفر بات صعباً عليه. دائماً لديه أجهزة حديثة. في بيته رأيت أول مرة الكاميرا المثبتة بجهاز الكمبيوتر. فقدانه وزنه زاد سنه سنوات. يقول جوزيف إن رؤية أنطون تشعره بأن حياته هو تشارف على الانتهاء .

على عكس أنطون لا يحب جوزيف الكلام عن ابنيه. يرتبك في حضورها كأنه ابن لهما لا أب، أو كأنه يتحرّج من وجودهما. لا يتحدث عنهما كأنه يخفي إعاقة لديهما. الكبير يعمل في أبو ظبي، أما الصغير فقد سافر بمنحة إلى لندن ليكمل الماجستير في الاقتصاد. الصور التي يحضرونها هدايا تسعده حقاً، حينها فقط أسمعه يلفظ اسميهما بفخر. لديه مكتبة ضخمة تضمّ القليل من الكتب والكثير من ألبومات الصور. يقول إن هوايته تعود إلى أيام الجامعة. بدأت بطريقة عشوائية حين راح يحتفظ لنفسه بصور أجداده وأقاربه المسنين. بعدها صار يجمع صوراً قديمة للمدن، لشوارع لمطاعم ولحانات ما عادت موجودة. صور عن الحروب، وجوه لم يلتقها، ممثلون في الأفلام الصامتة. المصانع والمطابع الأولى. الغابات قبل زوالها. كنبات، حنفيات، بلاط، رخام الأواني والمطرزات القديمة. يشتريها أو يوصي عليها. لا يهتمّ لتكلفتها.

مكتبته أفادتني في عملي. أجد فيها صوراً للبيوت لتفاصيل أعمدتها وواجهاتها ودرابزينها. غرفة الجلوس مزيّنة عنده بصورة بالأبيض والأسود لغرباء عاشوا منذ أكثر من مئة وخمسين سنة. أخرى لبيروت القديمة وأسواقها وللترامواي. أذكر حين وقع نظري

على الصورة الباهتة فوق الجدار. سألته إن كان الرجل المعقوف الشاربين في الشروال هو جده، قال: «بلى». لم أعرف أنه لا يمتّ إليه بصلة حينها. عندما قلت إن نظرة جده شبيهة بنظرته، سألني: «أي جد؟» أشرتُ إلى الصورة. ضحك قائلاً إنه لا يعرف رجل الصورة. عندما يشتري مجلداً لا يجد من يشاطره حماسه سواي. يتصل بي مباشرة ليتفق معي على موعد. لا يسمح لأحد أن يلمس مكتبته، يزيل عنها الغبار بنفسه. عندما لاحظ اهتراء الورق واصفراره، غلّف الألبومات والمجلدات بأغلفة نايلون. أنطون يشتري له الكثير من الألبومات في سفراته. نايلا إحدى بناته تحبّ مهمة البحث عن الصور، تتبرع بإرسال الكتب بالبريد أو مع أحد المسافرين. يضعها أنطون بفرح بين يدي جوزيف، راصداً ردة فعله. جوزيف يذكرني بجورج. ليس بسبب نفوره من أحاديث السياسة ولا بسبب قلة كلامه بل لقدرته على إخفاء أفكاره ومشاعره كأن وجهه صفحة بيضاء. عرفت عن أنطون كل شيء بعد سهرتين. أما جوزيف فلا أزال حتى الآن لا أعرفه تماماً.

مي تحبّ أن تلتقي بجوزيف. تستعيد مرحها. يكثر كلامها. تنظر إليه كأن لا أحد حولها. بحضور زوجته أُحرج كأنني المسؤول عن الأمر. تستدرجني لأحكي عنه. تدعوني إلى العشاء برفقته. لا يفعل جوزيف ما يشجعها لكنها في حضوره تتغير. أستغرب سلوكها. أنا الذي عرفتها في علاقاتها السابقة أجدها مختلفة. أهو العمر؟ أم الوحدة الطويلة؟ عندما مازحتها لينا قائلة: «ما بك؟ الرجل متزوج» ردّت: «لا أظن أنّ زواج أحدهم يُعتبر عائقاً بالنسبة إليك». نظرت إليّ لينا بعتاب كأنني أنا من تفوّه بهذه الكلمات. الآن تسكت مي في حضوره. أرتبك بينهما فأثرثر.

أركن سيارتي في موقف بعيد. لا أعرف المقهى الذي ذكره لي. قال إنه جديد. لا يزال لدي وقت. أمشي على مهل. أتصبّب عرقاً بارداً. أخلع الجاكيت. يلسعني الهواء البارد. في الظل يقوى الصقيع. أتجاوز الشارع إلى جهة الشمس. لم تتبدل هذه المنطقة كثيراً. هناك محلات تقفل لتحلّ أخرى مكانها، لكنني لا أحسّ بالغربة فيها. على الأقل المباني السكنية والفنادق هي نفسها. كانت عمّة ريتا تسكن في هذه العمارة. ربما لا تزال فيها. أتكون حيّة؟ لِمَ لا تكون؟ كانت تزورها فقط حين تصرّ عليها والدتها.

أتذكر ريتا تتابط ذراعي. نركض معاً بخطوات هوجاء. القصف فاجأنا في عودتنا إلى البيت. جلسنا على الأدراج في مدخل بناية مدمّرة. الجرذان التي خرجت من مخابئها لتتجول قريباً من أقدامنا أفزعتنا أكثر من القذائف ودفعتنا إلى الشارع والمطر ثانية. أذكر الضحك الذي تملكها. عندما سألتها لِمَ تضحك، راحت تقلّد الفزع الذي ارتسم على وجهي. كان يضحكها خوفي من الحشرات. تحبّ أن تقلّد رجوعي إلى خلف متسحباً ما إن ألمح إحداها. أمتنع عن تسمية الحشرات بأسمائها. الفراشة والصراصير والنحل والعناكب والدبابير كلها أسميها حشرات. كان يحلو لها أن تقلّدني حين أهرع نحوها ما إن أرى شيئاً يتحرك أو يطير في الغرف.

أحسّ بالتعب لحظة أفكّر بالعمل الذي ينتظرني. هواء ساخن تنفثه محركات السيارات. أخفّف من سرعتي. لم أحسب أن مسافة قصيرة ستتعبني. أراه مولياً ظهره لي. دخان سيجارته يرتفع، يبدّده الهواء بسرعة. كتفاه محنيان، يتأمل علاقة مفاتيحه أو هاتفه.

يلتفت فجأة كأنه حدس بوجودي. أعبر إلى الجهة الثانية من الرصيف. لا أحد غيره على رصيف المقهى.

أسمع رنين الهاتف يتسلل إلى حلمي، يرنّ طويلاً قبل أن أرفع السماعة. أعرف صوت أختي على الفور. تسألني بلهجة مستغربة: «ألا تزال نائماً؟»

- لديك مانع؟ أقول. أرادت أن تبلغني فقط بأن أمي مريضة، ترد.

لا أسمع حديثها الذي تسترسل فيه. أقاطعها قبل أن تكمل: «الآن كيف صارت؟».

- أفضل. يقول الطبيب إنها قد تحتاج إلى عملية للدوالي.

أغلق السماعة. الساعة السادسة إلا ربع صباحاً. أحاول النوم مجدداً. أتقلّب لنصف ساعة دون أن أنام. دائماً تتصل في أوقات مزعجة. تستيقظ باكراً. تظن أن البشر كلهم يفعلون مثلها. إن شعرت أمي بصداع، تتصل لتخبرني. لا يهمها لا الوقت ولا النبرة التي أجيبها بها. لا أصدق كم تبدلت. لطول ملازمتها لأمي باتت تشبهها كأنها أخت لها. أعد القهوة ثقيلة. الشمس بدأت تطلع. أفتح باب المطبخ. تدخل ضجة الشارع منه. شجرة الشربين يهزّها هواء خفيف. أعجب كيف صمدت كل هذه السنين. صحيح أنها ما عادت تكبر، لكنها خضراء. تعيش رغم إهمالي. الطنين في أذني كدفق شلال يهوي من علٍ. ربما لم يكن علي أن أشرب قهوة ثقيلة كهذه. أبتلع كوب ماء جرعة واحدة. الماء جيد قال الطبيب.

من الشباك تظهر الغيوم الداكنة. الطقس لن يبقى صحواً. مضى أسبوعان على غياب الخادمة. البيت في فوضى. قالت إنها ستخضع لعملية استئصال المرارة. صحيح أنني لا أحضّر أي طعام في البيت، لكن لم يتبق صحن نظيف واحد. أغسل فقط ركوة القهوة والملعقة الصغيرة. عليّ أن أغسل الفناجين إذ لم يعد هناك أي واحد نظيف. الكثير من الأواني الزجاجية أخذته لينا. قلت لها إن بإمكانها أخذ ما تشاء، أواني الفضة والكريستال، هدايا الزواج، الماكينات التي لم نستخدمها أصلاً، بعضها للعصير، للقهوة، للبوظة، للحلويات، ملاءات للأسرّة، غرفة النوم. أشياء كثيرة تملأ البيت وتضيّق المساحة بلا معنى. عندما جاءت بخادمتين لمساعدتها على التوضيب، غبتُ حتى الليل. بعدها جاء أخوها مع الشاحنة والحمّالين. بقي البراد القديم في المطبخ. اشتريت غازاً صغيراً برأسين. فما حاجتي للأفران. خلت الغرف من الزوائد. شعرت بالراحة كأن البيت اتسع. ربتا كانت مثلي تكره قطع الأثاث الكبيرة. لِمَ هذه المصابيح التي تحتل بأعمدتها الطويلة الزوايا؟ وهذه الثريات. ما لم أفهمه هو تلك الفترينه التي امتلأت بقطع للعرض لم نستخدم ولو مرة أي شيء فيها. كانت الخادمة تلمعها لساعات كل أسبوع بأدوية خاصة. حين أسخر من هذا العمل العبثي، ترد لينا بأنني لا أتمتع بأي حسٍّ فنيّ. لا أقدّر ما هو جميل. لا أقول لها إنني أحب الرسم لكن لا أقدّر اللوحات التي اختارتها. لو رجع الأمر لي لأوكلت جوزيف بتزيين الجدران. اللوحات التي لم تأخذها أهديتها لأمي التي لا ترمي أي غرض. تحتفظ بكل شيء. منذ وفاة أبي تلحّ عليّ كلما زرتها بأن آخذ بدلاته. تقول إنها ماركات مشهورة وغالية. لا يلزمها إلا تقصير الأكمام. أؤكد لها

بأنني لن آخذها لا اليوم ولا في المستقبل. لا أدري كيف يخطر لها أنّ أبي أطول مني. ربما لكثرة ما تقول في وصفه «كان له ما شاء الله طول وقامة». صار بعد وفاته طويلاً وأديباً أيضاً لأنه ملأ في حياته دفتراً كتب عليه انطباعات وخواطر وأبيات شعر مقفّاة. أخشى أن تطالبني بذاك الدفتر. كيف أخبرها بأنني أضعته. كثر نسيانها مؤخراً، حتى لو طالبتني ستنسى أنها فعلت. عندما تخبرني أختي عن ظاهرة النسيان والضياع لدى أمي، أقول: «ذلك جيد، ستنسى أن لديها أولاداً ونرتاح من العتاب والشكوى».

أنطون أخبرني عن أمه التي أصابها الخرف في سنواتها الأخيرة. يزورها، يقترب من سريرها ويقول لينعش ذاكرتها: «أنا ابنك أنطون». يضحكها قوله. تضرب يده القريبة وتردّ أنها ليست متزوجة ولا أولاد لديها. يقول إنها الفترة الوحيدة التي رأى فيها أمه سعيدة، هانئة تضحك كل الوقت. قبل ذلك كانت غارقة في السواد لأكثر من ثلاثين عاماً. وفاة أبيه المبكرة قصفت ظهرها. على خلاف الناس ارتاح لخرفها. هي سعيدة على الأقل. ما عاد هناك لا ماضٍ ولا ذكريات ولا أحزان. باتت كالأطفال، تحبّ السكاكر والحلوى والدمى وبرامج الأطفال. ما همّ أنها نسيت حياتها كلها وأولادها.

آخذ حبتين من الدواء بدلاً من واحدة. الماء نزل ثقيلاً على معدتي. كأنني أكلت وجبة دسمة. الغثيان يقوى. أتوقف عن ارتداء ملابسي. أجلس عند حافة السرير. منذ أيام أقاوم. يخطر لي أن أُنزل صناديق الصور والرسائل عن التتخيتة. البارحة ليلاً ثبتُّ السلم. عندما وصلت إلى درجته الأخيرة، نزلت ثانية. فكّرت أنني لست قوياً إلى هذا الحد. تمرّ أيام يُهيّأ لي فيها أن هذه الذكريات ولّت. فأنشغل بتأمين الأوراق للمصرف. أتنقل من بيروت إلى ضواحيها

البعيدة. أقابل أصحاب المكاتب التي أطوف فيها، أساوم على قيمة الإيجار. أدعو بعض العملاء والزبائن القدامى إلى المطاعم. أقصد المدينة الصناعية لأبقى على صلة مع العمال الذين عرفتهم. غالباً ما أعود متأخراً وقد جاوزت الساعة منتصف الليل.

يتك المفتاح قوياً في القفل. الصمت حولي. جسمي متعب. أخلع ثيابي.

أنزل تحت الأغطية. أسارع ليأخذني النوم. أغمض عيني. أراها في ثياب بيضاء، واهنة، نحيلة، أحاول أن أكلمها، الكلام لا يطلع. تختفي قبل أن أفتح فمي لمناداتها.

تغيرت حين تزوجت لينا، الزواج لم يكن يشبه بشيء علاقتنا قبله. لينا أيضاً تبدلت. لم تعد تلك الفتاة التي لا تكترث لما يقوله الناس. على عكس ذلك، راحت تلزمني بزيارات لأهلي، لأقارب لها. تلبي مناسبات اجتماعية لا أطيقها. لم أرد أن تزعل مني، فعلت بداية كل شيء لمراضاتها. أشتري كل الأغراض، لا يهمّ أن ينتهي عملي متأخراً. أحتمل ورش الديكور والبناء في البيت والنوم عند أهلي. أحتمل الديون التي تراكمت. الزواج بالنسبة إليها علاقة تتلقى فيها الدلال وتعتمد علي لأنفّذ رغباتها. حتى راتبها تعتبره مصروفها الشخصي لتشتري ملابسها وكل ما تريده. عندما أبدي انزعاجي تتهمني بالملل منها .

مع مرور الوقت زادت شجاراتنا. قد يكون سببها الأساسي موضوع الإنجاب. بت أؤخر عودتي مساء قدر المستطاع. عندما تطالبني بمرافقتها عند أهلها مثلاً، أقول لها أن تذهب وحدها لأن لا جَلَد لي على الزيارات العائلية. هي أيضاً راحت تغيب في الأماسي والسهرات. تخرج مع صديقاتها القديمات، عند أهلها أو

معهم. تعود متأخرة. تدخل للنوم دون أن تنطق بكلمة. كأنني أتقاسم العيش مع شخص غريب تماماً. تقول إن المشروب يجعلني لئيماً جارحاً، أفعل كل ما يغيظها وأن عدم رغبتي في الإنجاب تدل على أنانيتي. لو فكرت فيها حقاً لفهمت حاجتها لأن تكون أماً. أقول لها إنها تردد أقوالاً تافهة سمعتها من الناس، وأن ليس هناك حاجة للأمومة بل حاجة أنانية لرؤية نفسها تتكرر وتستمر في العيش. الأمومة تقديس للذات، شعور أناني، أقول كلاماً لا أقصده. يفرحني أن أراها تتألم. كأن قلبي تحجّر، حتى دموعها لا تؤثر بي .

ما عدنا نحاول التصالح والتصارح بعد شجاراتنا. تنام عند أهلها لأيام دون أن تقول لي. أتجاهلها. لا أتصل بها ولا أمر عليها في عملها كما كنت أفعل حين تزعل مني. ذات صباح حين استيقظت وحيداً في فراشي، فكرت كم يكون مريحاً لو تبقى لينا عند أهلها. كل هذ الهدوء لي. لم أفتقد غيابها. على العكس تمنيت لو يدوم. لم أرد أن أؤجل الكلام معها. اتصلت بها على الفور، فرحت حين سمعت صوتي، ظنت أني أسعى إلى مصالحتها؟ لم ينفع إلقائي اللوم على نفسي في فشل زواجنا. قولي إنني عاجز عن إسعادها وتحقيق أحلامها لم يهدئ ثورتها عليّ. انهالت علي بأسوأ النعوت، قالت إنني لست أهلاً للزواج، أي رجل حقيقي لن يحرم زوجته من الأمومة. قالت أشياء كثيرة كأنها حفظتها وكررتها مرات ومرات.

حاول أهلها ثم أمي أن يصلحوا بيننا. رفضتُ كل التدخلات. أنطون تفهّم ما أمرّ به. لازمني في تلك الفترة أكثر من المعتاد. حاول ألا يبقيني وحيداً في البيت. بعد هدوء الأحوال، راحت عائلتها تتصل بي في البيت وفي العمل، تكلمني عن الحقوق. قلت

إن بإمكانها أخذ كل ما في البيت. بإمكانها ألا تترك أي غرض فيه. لم أرتح كما تصورت.

لأهرب من نفسي كنت أغيب عن البيت لوقت طويل، أعود إليه للنوم فقط كأنني في فندق. أعمل لما بعد الدوام. يوكلني أنطون تخمين أكلاف المباني، وتفقد الورش. يدفع لي بعدها راتباً ثابتاً، رفضته بداية بحجة أنني أؤدي خدمة لصديق. لا يقبل، يقول إنني أقوم بعمل المهندس المدني في شركته فلماذا سأعمل مجاناً.

العمل المتعب شغلني. أبعد عني الكثير من الأفكار، خلو الشقة تقريباً أشعرني أنني في مكان جديد. حتى ثيابي رحت أختار القديمة بينها لأرتديها غير آبه لبهتان ألوانها. يوم الأحد أنام حتى ساعة متأخرة. عندما لا يكون لديّ ما أفعله أو من أزوره، أقود سيارتي لساعات، أشغّل الراديو وأسوق.

كنت أعتقد أنني قد ألتقي حتماً ذات مرة بريتا. سيناريوهات كثيرة أؤلفها، أشياء يمكن أن أقولها أو أخبرها. لكنني طوال سنين لم ألتقها. لم ألمحها حتى في الشوارع التي تمشي فيها إلى عملها أو سكنها. يعذبني ذلك الآن. لقاء عجزت عنه في الواقع وأعجز عنه في مناماتي أيضاً.

أحس بلزوجة الدم يتجمع فوق شفتي العليا، أمسحه بالمحرمة، لونه غامق كالحبر. أمسك بأنفي كما علّمني الطبيب. أنتظر دقائق. أتذكر خوفها علي، قلقها كلما رأت وجهي يمتقع، ضيقي من أسئلتها وهلعها.

أفكر أنه الضغط ارتفع. لذلك لا يتوقف النزيف. لدي آلتان لقياس الضغط، واحدة قديمة وأخرى حديثة سهلة الاستخدام. لكنني لا أستخدم أياً منها. بِمَ ستفيدني هذه المعرفة؟ ما عليّ فعله هو

تناول الدواء في الأخير.

أفكر أن آكل شيئاً قبل أخذ دواء آخر قال الطبيب إنه وقائي. لا أذكر مما يقي. أحمّص قطعة من الخبز. أحب رائحة الخبز المحروق. أدهنها باللبنة، أضع فوقها نقاطاً من الزيت. آكلها واقفاً إلى شباك المطبخ. علي أن أخرج. بعد قليل تخف عجقة الأوتوكارات والمدارس. ربما أحزم أمري وأتفقد ثانية المكتب الذي سأستأجره.

لم آلف القيادة في مثل هذه الساعة المبكرة. تتسلل نسمة باردة من الشباك المفتوح. خرجت مرتدياً قميصاً فقط. الطقس ربيعي منذ أيام. أحس بنشاط اليوم رغم الساعات القليلة التي نمتها. في السيارات وجوه نعسانة لصغار ولكبار. أطفال يأكلون سندويشاتهم محدقين عبر شبابيك السيارات. باصات تنعطف وسط الشارع غير آبهة للزمامير المستنكرة. كيفما أنظر، أرى أولاداً عند الأرصفة، أمامهم وعلى ظهورها حقائب ثقيلة. بعضهم يقف مع فيليبينية أو سيريلانكية. لا يهمني أن أحصي في رأسي عدد المكاتب التي زرتها مؤخراً. بعضها في قلب بيروت، لكن معظمها خارجها. أردتُ بداية أن أكون قريباً من المدينة الصناعية. لكن الإيجارات مرتفعة، والبخس بينها يحتاج إلى الكثير من التصليحات. نديم الذي سيعمل معي هو من وجد المكتب. يقع في أحد الأحياء الهادئة. إيجاره مقبول نظراً لمساحته. احترت لأننا لا نحتاج فعلاً لهذه المساحة كما أن موقعه في أحد الأحياء الفرعية زاد من ترددي. نديم قال إننا لسنا محلاً تجارياً لنهتم بالموقع. يكفي أن مكتب الشركة في قلب بيروت ثم إن الحي غير مزدحم. مكان الشركة لن يؤثر لا سلباً ولا إيجاباً في أعمالنا.

ربما تسرّعت قليلاً، لكنني بحاجة فعلاً لأن أبدأ بالعمل. أدخل إلى الحي خلف باصين ضخمين يسدان الطريق. يتوقفان كل بضعة

أمتار. زمامير تنطلق لحثّ المتأخر من التلاميذ. ما إن تجاوزتهما حتى لمحت الفسحة الفارغة أمامي. هذا الموقف الواسع غريب فعلاً، لم أرَ واحداً باتساعه داخل بيروت. أشير بيدي إلى مسؤول الموقف المنشغل بمشاهدة التلفزيون. حفظ وجهي لكثرة ما رآني مؤخراً. أحاذر في القيادة حين أنتبه إلى الأعداد الكبيرة من النساء اللواتي يمارسن رياضة المشي. معظمهن تجاوز الأربعين. وجوه عرقانة تحدّق بي. البناية على الجهة المقابلة للموقف. الجهة الشمالية تطل على المباني السكنية. في الطابق الأرضي مصرف. مكتبنا في الطبقة الثالثة. الطبقتان الأخرى كلها شقق سكنية.

أجد نديم قد سبقني، قال إن بيته قريب جداً من هنا. أوصل ابنه إلى الحضانة، ووصل إلى المكتب لتوّه. أعرفه منذ جاء إلى الشركة القديمة بعد تخرّجه. الآن رغم أنه لم يتجاوز أواسط الثلاثين يبدو مختلفاً. شعره قلّ، بقعة صلع وسط رأسه. زاد وزناً وهدوءاً.

نتجول في الغرف. نشتمّ رائحة الطلاء قوية، ساعدني نديم في اختيار أثاث المكاتب. لم نقم بأي ديكور، لكنّ أشكال المكاتب في القاعة الكبيرة غير متماثلة. لكل منها شكل هندسي مختلف. بعضها دائري أو نصف دائري أو مستطيل، مكتب نديم كالمعيّن، مكتبي على شكل مثلث، كما أن ألوانها التي تبدو متنافرة وصارخة للوهلة الأولى تخلق جمالاً وسط الجدران المحايدة العارية. تضحكني الأشكال والألوان إذ تبرز أكثر بخلوّها من الموظفين. كأن نديم استوحى الديكور من حضانة ابنه.

لم أحصل بعد على القرض. لكن ما إن أخبرت مي عن مشاريعي حتى عرضت عليّ مبلغاً أتدبّر به أمري بانتظار الموافقة على طلبي في المصرف. العمل الأول الذي انشغلنا به هو مكاتب

ناصر وأخوته. دعاني إلى بيته برفقة مي. تذكرت كم كانت تحب ريتا الجلوس في الغرفة الشرقية حين نجتمع حول طاولة واطئة مدّ فوقها صدر نحاسي. على جدرانها سجاجيد شرقية، في زواياها قدور وأوانٍ نحاسية وجرار وأباريق فخار. لكن الغرفة تبدّلت لا أثر فيها لما كانت عليه. الكثير من الذكريات دفعني إلى الصمت، انتقلنا بعدها إلى غرفة الطعام. أرى تجاعيد التعب والعمر عميقة. كالحُفر تحت الضوء الأبيض. لا شيء يخفيها. أكيد وجهي هو الأكثر تعباً. مي تقول إنها تريد أن تسافر صيفاً عند جورج. نستغرب جميعنا لأنها لا تأتي على ذكره ولا تبدي رغبة في السفر إليه عادة. حتى حين كان أولاده صغاراً ويلحّ عليها لتزورهم وتتعرف عليهم ما كانت لتفعل. تكتفي برؤيتهم حين يجيئون كل بضع سنوات. تقول إنه حين حكى معها آخر مرة، أحزنها. نسألها إنْ كان به شيء. تقول: «لا، لكنه حكى عن بيروت، عن أبي. عن الأعمال التطوعية التي كانت تلزمنا بها أمي في مراهقتنا فنذهب مع الجمعية إلى قرى بعيدة نوزع هدايا على الأولاد في الأعياد أو نقصد مآوي العجزة لتوزيع الحلوى عليهم».

ذكّرها كيف كانت قوية في صغرهما كالصبيان. تلحق بالأولاد لتضربهم حين يسخرون من بكائه في سنته المدرسية الأولى. صحيح أنها ما كانت تبدي اهتماماً به وتدير ظهرها لتلعب مع رفاقها، لكنها أيضاً تسهر على ألاّ يؤذيه أو يبكيه أحد، تقول إنه يحكي هكذا لأول مرة. عادة يتبادلان طرح أسئلة لا يسمعان أجوبتها.

تذكّرنا جورج عندما استعار شقة سامي الزعني ورفيق له ليختلي بصاحبته. كانت شقتهما المفروشة في عين المريسة. كلاهما في كلية الطب ويقضيان معظم الوقت في الصفوف والمستشفى. كان موعد

جورج وصاحبته قرابة الحادية عشرة صباحاً. وصل قبلها ليرتب فوضى الشقة قليلاً ويضع الأغراض التي اشتراها في البراد. خطط لجلسة تدوم حتى المساء أي ساعة تعود إلى بيتها من الجامعة عادة. بعد قدومها بقليل، رنّ جرس الباب. تجاهل جورج الأمر. لكنّ الخبط على الباب قَوِيَ. صوت امرأة تنادي «يا سامي، يا سامي، افتح يا ماما، هيدي أنا وأبوك». هكذا فتح جورج الباب. كذب مدعياً بأنه شريكهم في السكن ويدرس مع زميلته: اعتذرا وقالت أم سامي بأنها لا تريد أن تؤخّرهما عن الدراسة. ستضع الطبخ في البراد وتحضّر لقمة غداء للجميع. ثم راح أبو سامي يحكي عن أوجاع ظهره وكيف قال لزوجته «ولو يا مرا ابننا حكيم ونهمل صحتنا، تعالي نقضي عنده يومين، يداوينا ونراه، منذ أكثر من شهرين لم يأتِ إلى الضيعة» قام جورج وصاحبته لينصرفا، لكن أم سامي أقسمت ألا تدعهما يخرجان دون غداء. كثيرة هي القصص التي أشاعها جورج عن نفسه، عن خرقه مع الفتيات ليضحكنا. في الواقع كانت حياته الخاصة سراً مقفلاً. نصدّق ما يرويه رغم قلته. ونفاجأ حين يخبرنا أحدهم إنه التقاه برفقة شاب أو فتاة لم نسمعه أبداً يأتي على ذكرهما.

في السهرة أرانا ناصر وزوجته مجموعة صور لحفيدتهم الأولى. كان إبداء الاهتمام والحماس صعباً على كلينا. مي مثلي لا تفهم لماذا علينا أن نرى أكثر من أربعين صورة لفتاة لم تبلغ الشهر. صورة واحدة تكفي، تبع ذلك شريط مصوّر للأم فوق سرير المستشفى، تحمل ابنتها للمرة الأولى، ها هي ترضعها. الأب يحمل الصغيرة، يقربها من عدسة المصور ليرينا ملامحها عن قرب. ثم البيت واستحمامها الأول فيه وذلك الحبل المفزع عند الصرة.

أدرت وجهي في الوقت نفسه مع مي. لم أرد أن أنصرف مباشرة خشية أن أبدو فظاً أو ضجراً. تحمّلت بصعوبة انتهاء الشريط. ناصر وزوجته مشدوهان ومشدودان للصور أمامهما كأنهما يريان الفيلم أول مرة. نظرت مي إليّ وغمزتني.

بعد السهرة، مررت بها في بيتها لنشرب كأسنا الأخيرة، كما قلنا. لكننا بالغنا كالعادة. استيقظت بعد الثالثة لأجدني غافياً على الكرسي الهزاز. مي أيضاً رفعت قدميها وتقوقعت على الكنبة الصغيرة. سيجارتي التي صارت رماداً تركت حرقاً ظاهراً في خشب الطاولة. احترتُ هل أوقظها أم أغادر وأغلق الباب خلفي. هززتها قليلاً، فتحت عينيها. أول رد فعل لها هو التحديق بحرق الطاولة. ودّعتها قبل أن أسمع شكواها.

نطلب من فرن قريب مناقيش بزعتر. نأكلها واقفين إلى الشرفة، ندخل بعدها إلى الغرف الفارغة. نختار واحدة لتخصيصها للاستراحات والأكل. نأخذ القياسات لنوصي على طاولة وكراسٍ.

لن يصل أي من الموظفين قبل التاسعة. لكن بحلول هذا الوقت أصابني تعب وإنهاك. لم أدرِ كيف سأكون منتجاً. خططت للانتهاء من الخرائط الأولية لمكاتب ناصر. عيناي تغمضان من تلقائهما. الموسيقى التي أسمعها على الكمبيوتر تحفّزني أكثر للنوم، أخرج إلى الشرفة. الهواء منعش. بات دافئاً وقد طلعت الشمس، لم أنتبه إلى أصص الزهور والنباتات في مدخل الموقف. أعداد هائلة من الحبق والشتول. لا بد أنه يبيعها، ربما علينا شراء بعضها لتزيين الشرفة. كانت ريتا تحب كثيراً هذه الزهور التي توضع في أصص عند النوافذ أو على درابزين الشرفات سواء رأتها في الصور أو في الواقع. لا بدّ أن تدلّني عليها. كان لدينا بعضها عند شرفة المطبخ،

لكن بعد رحيلها ذبلت. الخادمة أكدت أنها تسقيها كل أسبوع. شجرة الشربين التي صمدت هدية لريتا من صاحب مشاتل ومحلات ورد. كان زبوناً في مكتبهم. أرسلها في عيد الميلاد. بعد العيد، أخرجتها ريتا إلى الضوء على الشرفة، وصارت تعتني بها. بعد أن هدأت الأوضاع واستعادت المحاكم عملها، كثر عمل ريتا. زاد عدد الزبائن بشكل ملحوظ. في المناسبات كانوا يوزّعون الهدايا على المحامين، مناشف وعطور وعلب سيجار ومشروبات وأقلام وساعات وغيرها من الأشياء، كانت ريتا تعطي السكرتيرة والبواب بعضها.

بعد الثامنة، هدأ الحي. من حين لآخر تخرج سيارة من الموقف الذي يستمر تدفق المشاة إليه. كأنه ناد رياضي. أسمع نديم يتحدث مع زوجته يقترح عليها أطعمة لتحضيرها أو لشرائها. لإقناعها يقول إن ابنهما يحبّ هذه الأكلة. الهواء يخفف من هذا الاحتقان في جبيني. لم أعتد بعد على هذه الأدوية الجديدة. فكرت أن أتصل بالطبيب لأسأله ثم امتنعت. خفت أن يسألني عن التحاليل والفحوصات التي طلبها.

جلست مجدداً إلى مكتبي. الكمبيوتر يبعث سخونة تلفعني. أكبس على الأزرار شارداً. الخرائط والرسومات والأرقام تتوالى غريبة عني كأن عقلي عاجز عن تجميع هذه الأجزاء وهذا الشتات في شيء واحد مفهوم .

يتوافدون تباعاً بحلول التاسعة. تمتلئ المكاتب. الحرارة ترتفع داخل القاعة. أفتح النافذة قربي. كأن ناراً تشتعل داخل بؤبؤ عيني. أنهض لأبرّد وجهي. لا أريد أن ينزف أنفي وأنا وسط كل هؤلاء الناس. أكره أن ألفت النظر إلي.

أجد صعوبة في أن أكون صاحب شركة. عندما اقترحت على نديم أن يكون شريكاً بالحصة التي تناسبه، قال إنه مفلس ولا مدّخرات لديه. لا يزال يسدد أقساط سيارته وشقته. وحده نديم يخاطبني بألفة. الآخرون رغم معرفتي السابقة بهم يربكهم وجودي.

بعد قليل سأخرج إلى المدينة الصناعية لأوصي على ما ينقصنا من تجهيزات. ربما أتنفس أفضل وأستعيد تركيزي.

أشيح ببصري عن صورتي في مرآة المصعد. لا عجب أن يناديني حتى من جايلني بالعم.

أصل إلى المكتب باكراً جداً، ألحظ قلّة السيارات على غير عادة. حتى الأوتوكارات قلما أصادف أحدها في طريقي. لا أولاد على الأرصفة. كأنها مدينة أخرى. أجد ناطور الموقف يغطّ في نومه جالساً على الصوفا. من الراديو ينبعث صوت مذيعة تقرأ عناوين الصحف. كأنه لا يبدّل المحطة، تبقى عالقة في الوقت نفسه وفي الصوت ذاته كل يوم.

أعرف من نديم عن عطلة الربيع. يشكو لي صعوبة أن يجد من يهتم بابنه وكلاهما في العمل. يضعه عند حماته لكنها لا تبدو مرحّبة بالأمر. أقول: «الجدة على حدّ علمي تحبّ أحفادها».

- «لا، لا أريد أن أظلمها. هي تحبه، لكنها تحبّ أيضاً الإبقاء على الترتيب والنظافة في بيتها إلى حد الهوس. تمسح الغبار عن أباجورات الخشب كل يوم وتلمع زجاج النوافذ عدا عن تنظيف البيت».

- «لِمَ لا تتركانه عند جدته الأخرى»؟.

- «تسكن بعيداً عنا. تعرف كيف هي زحمة السير».

يفتح كيساً ورقياً، يُخرج منه سندويشاً وخيارة مقشّرة، يمدّها نحوي أشكره. يشدد الدعوة. أكذب قائلاً إنني فطرت. رائحة المارتديلا والخيار والنعناع تفوح في أرجاء الغرفة. يأكل محدّقاً بشاشة الكمبيوتر أمامه. كلامه عن ابنه ذكّرني بالتوائم الثلاثة أولاد

رمزي. لا أذكر الآن لماذا ناموا عندنا. من مات حينها أم رمزي أم واحد من أبوي زوجته، نسيت فعلاً، كان أولاده لم يتجاوزوا سنتهم الثانية. عدتُ من عملي. سمعت الضجة قبل أن أفتح الباب، ظننتها من شقة أخرى. كانت ريتا جالسة قبالتهم إلى طاولة المطبخ، تلوك شيئاً ما مصطنعة أصوات الاستحسان، وتحرّك عينيها في كل الاتجاهات، ما يدفعهم ثلاثتهم إلى الضحك عالياً جداً. تردد أنها ستأكل كل شيء وحدها. لن تطعمهم. حين يمدّ أحدهم ملعقته ليغرف اليخنة من الصحن، تصفق يده الصغيرة. يزداد إصراراً ويحشر الملعقة في فمه قبل أن تمنعه. تتصنع البكاء. أنا أيضاً أخذني الضحك لأنها احتالت عليهم. رمزي رغم كونه طبيباً اعترف أن النظريات الطبية شيء والحياة والتطبيق شيء آخر.

فشل مع أولاده تماماً. جرّب هو وزوجته أن يبقوهم دون طعام بحجة أنهم حين يجوعون سيطالبون بالأكل لكنهم لم يفعلوا وحين عُرض عليهم الأكل أشاحوا بوجوههم مكشّرين. اشتريا لهم كل أنواع الأطعمة الجاهزة، جرّبوا اليخاني، الحساء، حتى الحليب يبصقونه إن أُرغموا على شربه. يقول رمزي بيأس «هل رأيت ولداً يكره البسكويت والشوكولا؟ هؤلاء العفاريت يقرفون من طعمها». قلت لريتا يومها بأنه ما كان عليها التبرع للاهتمام بهم، فقد امتلأ رأسي ضجيجاً. خصوصاً وأنها راحت تشركني بألعابها معهم.

تخبئ حبة فاكهة في مكان يمكن أن يكتشفوه وتروح تتسابق معهم لإيجادها مرددة «أين هي؟ سآكلها وحدي» قلت لها إنها تضج أكثر منهم وإنهم هم يلاعبونها وليس العكس. كان أمراً سحرياً فعلاً أن تدفعهم إلى الأكل. مساء أجلستهم ثانية حول الطاولة، أقنعتهم بمساعدتها في تحضير الطعام. أرادت إيهامهم بذلك ليفرحوا.

عندما حان موعد النوم، لم تستطع أن تمنع بكاءهم ومطالبتهم بأمهم. الحكايات التي راحت تسردها وتمثّلها مقلّدة شخصياتها أيقظتهم أكثر وزادت من حيويتهم. نمنا قربهم حتى غفوا بعد أن تأخر الوقت كثيراً. منظرهم جميل وهم مستغرقون في النوم. واحد منهم أمسك بخصلة من شعري لينام، كلما حاولت الانفلات، تروح يده المستديرة تتلمس ما حولها حتى يعثر على رأسي مجدداً.

الكمبيوترات تسخّن جو الغرفة. لم نشغّل بعد أجهزة التبريد. حين أشغلها، أجدهم يتسللون لإطفائه بحجة أن الطقس بارد والحرارة تقارب سبع عشرة درجة. يتصل جوزيف عند التاسعة والنصف. أسمع تكتكة مفاتيح الكمبيوتر بينما يكلّمني. يقول إن هناك أوراقاً علي توقيعها. اعتدت على لهجته الجادة حين يهاتفني من عمله.

لم أجده في مكتبه حين وصلت، جاءت نيرمين، صافحتني سائلة عن أخباري خصوصاً إنني لم أمرّ بهم منذ زمن، أجبتها بغير انتباه بينما أقلّب بعض الأوراق التي أحضرتها. استأذنتْ وخرجتْ. عادت لتقول بأن مسيو جوزيف اضطر لحضور اجتماع قصير، سيعود في الحال، لم أدر ما أفعل. في السابق كنت أحب أن ينشغل جوزيف عني، فأمازح نيرمين. تهيأ لي طوال شهور أنها معجبة بي، صحيح أنها أصغر مني لكنها ليست شابة أيضاً، أظنها تجاوزت الخامسة والثلاثين. كانت ما إن تراني تأتي نحوي. أقول لها إنها تزداد جمالاً وشباباً، ترد بأنني لطيف أحب رفع معنوياتها. هكذا نستدرج بعضنا إلى مدائح لا تفضي لشيء. جوزيف يتظاهر باللامبالاة التامة كأن لا شيء يجري أمامه. الآن أراها فلا أميّزها عن الموظفات حولها. اللطف نفسه. طريقة الكلام مع الزبائن. الأناقة ذاتها، حتى العطر هو نفسه.

لا آبه للافتة منع التدخين. أشعل سيجارة بينما أعبث بالإطارات الصغيرة فوق مكتب جوزيف. قلت له إن كل البشر الطبيعيين يضعون صور أولادهم في الإطارات لا الطواحين والقطارات القديمة كما فعل هو. أما الصورة التي يظهر فيها وجه فتعود لأخت جدة أنطون. صورة التقطت لها قبل أن تسافر إلى المكسيك لتلحق بزوجها، تبدو كأنها تجاهد لفتح عينيها، كأن بهما رمداً. على عكس عينيها، أذناها كبيرتان مثنيتان إلى أمام. أسأله مستغرباً عما يعجبه في هذه الصورة البائسة، وماذا يقول للناس حين يسألون عن صاحبتها. «جدتي، مالكة أكبر مصانع نسيج في المكسيك، من يجرؤ حينها على الشك في جمالها؟» يرد ضاحكاً.

تعود نيرمين حاملة فنجان قهوة لي، تبعد كرسياً بقدمها، تجلس. ترتفع تنورتها وتكشف عن ساقيها المشدودتين في كولون النيلون. تعاود سؤالي عن الأحوال والصحة. أحتار. لا أجد القوة لاصطناع حديث فأسكت. انصرف إلى رشف القهوة رشفات متتالية تحرق طرف لساني. عودة جوزيف تنقذني، أسلّم عليه بسعادة يستغربها. عشرات الأوراق أملؤها وأوقّعها. لم أخرج إلا بعد ساعتين قرابة الظهر. فكّرت أن أتفقد الورشة عند ناصر. لزمني نصف ساعة لأصل بسيارتي رغم المسافة القصيرة بين المصرف والمكتب.

الضجة تقوى بينما أصعد الأدراج. أتوقّف طويلاً بين الطوابق. يداي ترتجفان. أحسّ بنبض قوي في شرايين رقبتي. آلات الثقب تنخر الجدران. غبارها يتصاعد في الجو. على الأرض طبقة من التراب الرمادي. لا يقنع النجار أن الخزائن التي طلبناها مختلفة عما نفّذه. نمدّ الخرائط، أشير إلى الأرقام. بعد أخذ القياسات، يتبين أن الفارق كبير. يعترض رافعاً صوته على إضاعة وقته. يطالب

بمبالغ أكبر من التي اتفقنا عليها. يحكي عن العمل الطويل الذي يستلزمه تنفيذ التصاميم. رغم اعتيادي على ذلك، أخرج عن هدوئي، لا أدري أي كلام تفوّهت به. أحسست أن وجهي يحتقن، وأن قلبي سينفجر فيخرج الدم من مسامي كلها. سكتت الآلات كلها، هدوء حلّ فجأة. خرجت متمهلاً. ركبتاي تكادان لا تحملاني، جلست عند درجة، حزن لم أشعر بمثله يوماً. ابتلعت حبة دواء دون ماء، غصصت بها رغم صغرها.

الجلوس في المقهى لم يكن فكرة جيدة، تركت الصحيفة التي قلبت صفحاتها مرات. لم أقرأ فيها سطراً واحداً. كأنها ليست كلمات عربية. تأمل الناس يأكلون أو يتحادثون لا يشغلني، كأنني أتجوّف لحظة بعد أخرى. أكتفي بشرب البيرة الباردة. يخف شعوري بالحريق داخل عيني. بعد الغداء قلّ الناس حولي. على الطاولات صحون فيها بقايا ومحارم وأعقاب سجائر. أكواب ملطّخة الجوانب. في الشمس تلمع البصمات وأحمر الشفاه عند جوانبها.

الشمس بدأت تنسحب. الجو يبرد قليلاً. أنهض وقد سرى خدر في قدمي وفي شفتي كأنني خرجت لتوّي من عيادة طبيب أسنان. ربما أكثرت من شرب البيرة.

اتصالات كثيرة سجّلها هاتفي. من بينها زبونان أرسلهما أنطون، نديم أيضاً اتصل بضع مرات، يريد أن يعرف شيئاً بخصوص ستائر طلبناها ولم يجدوا منها في المستودعات. ربما علي أن أعطيه حيّزاً أكبر من الحرية ليتخذ بعض القرارات دون أن يعود إليّ. ما الذي يهمّ؟ ستائر بلون أغمق أم أفتح؟ أضيق مؤخراً بهذه التفاصيل التافهة، أقود منذ وقت لا أدري إلى أين أذهب. أرى السماء تتلوّن بألوان رصاصية. يختفي الضوء تدريجياً. أخرج من بيروت باتجاه

الطرق الجبلية. إن وجدت القدرة، أمرّ بأمي وبأختي. تقلّ السيارات. الأصوات تتبدّل أيضاً، أسمع حشرات الليل وجرارات المحلات التي تقفل. العتمة تقوى صعوداً خصوصاً ومصابيح الإنارة مطفأة على طول الطريق. البرد يشتد، أغلق الشبابيك. أخفّف سرعتي، بعض الضباب الكثيف يحجب عني الطريق. أنعطف جهة درب فرعي. خبطة مدوية. صوت الفرامل يجرح صمت الليل. أخرج من السيارة. جمهرة من الناس تجمعوا بثياب النوم، كأنهم كمنوا لي عند المفارق لمفاجأتي. الخوف صعّب علي فهم ما يجري. «اتصلوا بالإسعاف» صرخت امرأة. رجلان حملا شاباً يتأوّه عند جانب الطريق، وضعوه في سيارة، أقلعت بهم بسرعة. دولاب دراجة حطّم الزجاج الأمامي لسيارتي. لم أنتبه للدم يسيل من وجهي وعنقي، يبقع ثيابي ويكرج داخل حذائي. صوت يقول: «هيدا ابن أم إبراهيم». ما فكّرت سوى بالشاب الذي صدمته. ماذا لو مات؟

الناس ينظرون إليّ كأنهم رأوا شبحاً، لمحت أختي تركض متعثرة بخفيها. بعدها اضمحل كل شيء وتشوّش كأن أحداً أغرق ما حولي بعتمة دامسة.

في المستشفى، عرفت من أختي أن الشاب لم يصب إلا برضوض. أما أنا فالطبيب يريد مراقبتي بسبب ضغطي الذي وصل إلى أربع وعشرين. جروحي طفيفة، ستشفى عندما يطفو نثر الزجاج على سطح الجلد. قمت بحذر، لبست ثيابي الملطّخة. لم أسمع شيئاً من اعتراضات أختي، انتعلت حذائي دون جوارب. قلت: لا أحب المستشفيات. لدي دواء للضغط. أريد أن أذهب إلى بيتي.

أمكث في العتمة. لا أحاول معرفة الوقت. أي حركة قد توقظ أمي وأختي في غرفة النوم المجاورة. قالتا بما إنني أرفض البقاء في المستشفى لن تدعاني أنام وحدي. ثبت الطبيب بذراعي آلة تسجّل ضغطي على مدار الساعة. لا أرغب في العودة إلى النوم. أخشى أن أعلق في كابوس آخر. ما الذي يعيد إلينا وجوهاً بعد أكثر من عشرين سنة أو حتى أربعين. قد أرى في نومي تلميذاً كان معي في أحد الصفوف الابتدائية. لا أدري كيف تحفظ الذاكرة بعض الوجوه سالمة حيّة.

رأيت أنني ذاهب برفقة فادي إلى البيت. أي بيتي الحالي. لكن يبدو كأنني غادرته منذ زمن بعيد. جاوزنا العتبة، وجدناه كتلك البيوت المهجورة التي تمّ الانتقال منها دون أن تُخلى فعلاً من كل الأثاث. غبار وعتمة، أكياس نايلون تعلق بكعوب أحذيتنا. وحدها غرفة المكتبة تُذكّر بما كانت عليه في الماضي. الستائر المقلّمة. الكنبات الزهرية. لكن الكتب مصفرّة داخل المكتبة. الرفوف مخلّعة عند زواياها. أمشي متعثراً لأن الظلام يشتدّ. في غرفة الجلوس شبه الخالية أرى ريتا في بيجامة مخططة بالأزرق والأبيض. وجهها يواجه الجدار لا الباب المفضي إلى الشرفة. تجلس على كرسي، طراحتها نبيذية اللون. كانت لدينا أول زواجنا. تبكي دون صوت ودون أن يرتجّ جذعها النحيل، أحسّ بألمها شديداً كثيفاً كأنني أراه

حولي. أحتار. ماذا أفعل؟ ألجأ لفادي لأسأله في الغرفة التالية. أعود. أقترب منها. لا أتبيّن ملامح وجهها المحني. يطلع منها صوت خافت وعميق تقول إنهم تركوها وحدها ورحلوا، تشتاق إليهم، تعلم أنهم لن يعودوا أبداً، أمسك بيدها لتنهض عن الكرسي الذي أخرجه إلى الشرفة المطلة على الشارع. أجلسها كأنها صغيرة. أفاجأ بالشرفات تحتنا وقد اتسعت ونمت فيها ورود وزهور. دللتها عليها لتلهو عن وجعها. لا تفعل كأنها لا تسمع. أقاوم دمعي كي لا أحبطها أكثر. أفكر أن أنظف البيت. ربما يبهجها ذلك ويريحها. أنصرف إلى السجادة في غرفة الجلوس، أنظفها بالمكنسة الكهربائية لكنها تبقى مجعوكة. أعجب كيف تختار لينا سجادة حرير رقيقة كالشرشف يصعب فرشها والاهتمام بها. آتي بمكواة لأملسها. ثم أنظر عبر الزجاج. أجدها في جلستها الأولى كأنها وحدها في كون واسع. تستمرّ في البكاء. أضمّ رأسها كأنها طفلة أعدها بأنهم سيعودون إليها. طوال الكابوس تملّكني الإحساس بالعجز. العجز من الوصول إليها والتخفيف عنها. كأن الحزن موجة عارمة تكبر وتكبر لتغرقنا دون أمل في أن ننجو ونطفو على السطح.

الآن بينما أستعيد تفاصيل الكابوس، لا أعرف من أين تأتي قوّته. لماذا يعذّبني هكذا؟ ما الذي أعاد فادي إلى بالي. لم نلتق منذ أواخر الثمانينات. كان واحداً من أصدقائي أيام المدرسة. كوننا جارين أيضاً، متّن صداقتنا على مرّ السنوات. كأنه ظل لي. يتبنى أفكاري، أصدقائي الآخرون يحبهم بسرعة. يؤدي خدمات للجميع. كان هو من نرسل ليشتري لنا المشروب والسجائر. هو أيضاً من يحمل معلبات وأطعمة نأكلها في أواخر الليل.

أحياناً يأتي برفقة ابن خاله. نعرفه منذ صغره. لا أحد منا يخبره

بأننا نجده ثقيلاً حتى لو بقي صامتاً. لا أحد يحب أن يجرح فادي. مع الوقت اعتدنا على ابن خاله، ما الضير في تواجده. لا يزعج أحداً كما أنه يملك سيارة. في الجامعة، صرنا نرى فادي أقلّ. ليس لأنه تسجل في جامعة أخرى بل لأنه انشغل بصاحبته التي تزوجها لاحقاً. كانت تأتي برفقته أحياناً. ما يضحكنا حرجه من السير قربها أو الوقوف لصقها. يزعجه أنها أطول منه. تعلم نقطة ضعفه فتبادر إلى معانقته والعبث بشعره كأنه صغير. كانت أماني تتخصص بالأدب الإنكليزي، وتتعلم في الآن نفسه بعض اللغات القديمة. تحكي بصوت عالٍ. عندما تخبر طرفة ما نعجز عن فهمها لأنها تبدأ بالضحك بينما تسردها. لكنها رغم ذلك لطيفة. رسب فادي في دراسة المحاسبة سنتين. تخرجت أماني قبله. عملت في التعليم قبل الظهر، بعد الظهر في معهد للدراسات تقوم فيه بالترجمة. تزوجا بعد تخرّج فادي. لم يزعجه تبطله بداية بما أن أماني تصرف على البيت. حين أنجبا ابنهما الأول، وجد وظيفة في واحدة من المدارس الخاصة. في السنة التالية أنجبا ابناً آخر فيما لا نزال نحن نعيش حياة اللهو القديمة. كان ينضمّ إلينا في بعض الليالي. لكن ما إن تتجاوز الساعة العاشرة حتى يضطرب كأنه يخجل أن ينصرف لينام. لم نسهّل عليه الأمور، نقول إنه صار ككل المتزوجين الذين ينامون ما إن تعتم، حينها يسكب كأساً أخرى ويعاود الجلوس، لا يعرف إننا نقول ذلك لإغاظته فقط. ارتاح حين تزوج معظمنا. صار يزورنا برفقة زوجته وابنيه. كان كأنه ابن ثالث برفقة أماني، تنفض عن كمه غباراً علق أثناء تناولنا الطعام، تقول: «تناول هذه ستحب طعمها. لا تأكل من هذا الطبق الحرّ يضرّك. لا تشرب كثيراً ستتقيأ كالمرة السابقة». يحتقن وجهه كأنه يحزر التعليقات التي سنقولها ما

إن يدير ظهره. تصرفها يستدعي ضحكنا. نقلّد نبرة صوتها، كيف ترفع خصلة شعر عن وجه زوجها. نبالغ في تأليفنا أقوالاً وأفعالاً ننسبها إليها. لكننا أحببنا أماني. استمر فادي في زياراته للشباب، لكنها زيارات تباعدت حين انتقلت مع ريتا إلى الجنوب ثم إلى الكويت. عندما سافرت إلى السعودية كانت ريتا تكثر من ذكر اسمه في الرسائل. أسعدني أن تستعيد تلك الرابطة القديمة بفادي وعائلته. على الأقل لا تبقى دائماً وحدها. في رسائلها لم تذكر شيئاً مما سأكتشفه لاحقاً ما إن أعود.

عندما عدت من السعودية فوجئت بهيئته المهملة. أرسل لحيته، وترك شعره يطول، ظلال سوداء تحت عينيه. ثيابه مهملة. لم أفهم كيف تدعه أماني على هذه الحال، هي المهووسة بأدق التفاصيل المتعلقة به. الوقت يتقدم. هو مستمر في الشرب والجلوس ساهياً. كنت متعباً، أريد أن أضمّ ريتا وأحكي معها حتى الصباح. هي أيضاً كانت تنظر إليّ كأنها لا تصدق وجودي، تمسك يدي كلما جلست قربي. عندما قال «سأدعك ترتاح وأراك غداً» وقفت أودّعه قبل أن يتم جملته. أغلقت الباب قبل نزوله حتى على الأدراج. لم تخبرني عنه إلا بعد أيام حين زاد استفساري عن حاله. قالت إنه يمرّ بأزمة. علينا أن نسانده. أماني أخذت الأولاد وسافرت إلى أستراليا بعد الموافقة على طلب الهجرة. كل ذلك وهو لا يعلم بشيء. أول ردّ فعل كان غضبي من لؤم زوجته وقلّة وفائها، القصة الفعلية كنت أجهلها آنذاك. قالت ريتا إن فادي اعتاد أن يأتمنها على ما مرّ به منذ البداية. لكنه خائف من ردة فعلي. استغربت متسائلاً عن علاقتي بالموضوع.

- «يعني قد تتبدل نظرتك إليه وتكرهه».

- «لماذا أفعل. هو الضحية في كل ما جرى».

- «ليس تماماً، لم تحصل الأمور دون سبب».

تخبرني أن فادي ارتبط بعلاقة مع زوجة ابن خاله. لم يسع لذلك. لكن هناك أموراً تحدث رغماً عن الإنسان. كان كل يوم يمرّ ببيت ابن خاله ليأتي بولديه من عندها. الأوتوكار يوصلهم إليها. أماني تعمل بعد الظهر وابناه يصلان من المدرسة قبل انتهاء دوام عمله.

أحياناً يبقى للغداء عندها. هكذا تلعب ابنتها مع الصبيين. ليلاً كثيراً ما كانوا يتزاورون أو يقومون بمشاريع مشتركة. يقول إن الأمر بدأ حين لاحظ نظراتها إليه سواء كانا وحدهما أم برفقة آخرين. صحيح أنه يراها جميلة لكنها بالنسبة إليه زوجة صديقه وابن خاله الذي تربى معه. حاول أن يبعد الأمر عن تفكيره، لكنه تيقن مع مرور الوقت بأنها معجبة به حقاً. صار يغيب عن عمله ليراها وحدها في بيتها أو بيته لا فرق. تقول له إنها لا تطيق أن يلمسها أحد غيره. ما عادت تريد الحياة دونه. طالبته بإيجاد حل، تتعذب إذ ليس بإمكانها أن تعيش بين رجلين. لم يفعل. هناك زوجته وأولاده من جهة وابن خاله وعائلته من جهة أخرى. ثم تركت البيت مع ابنتها. عندما رجعت كان ابن خاله قد عرف بكل شيء. الغريب أن أماني لم تنفعل عندما علمت. لم يبدر منها ما يدل على قرارها اللاحق. تحصّنت بالصمت التام. لم تحزم أغراضها لتلجأ إلى أهلها. شهور ظنّ خلالها أن حياته ستستعيد هدوءها ما إن تبدأ أماني بمبادلته الكلام. عليه أن يصبر، ثم ألم يتصالح ابن خاله مع زوجته كأن شيئاً لم يكن. صحيح أنه ما عاد يرى أياً منهم لكنه سمع الأمر من كثيرين. كان يخبر ريتا أنه لا يستطيع أن ينزع صورتها من ذهنه.

عندما يتذكر يحسّ أن جلده يحترق، كل شيء فيه يرتجف. لا يعرف كيف ينجو من ألم البعاد عنها.

تقول ريتا إنه يبقى ساعات عندها ساكتاً، يشرب معها القهوة، أو يمكث دون فعل أو قول شيء. حتى حين تأتي صديقاتها أو أهلها لا يتزحزح من مكانه فوق الكنبة. الجيران باتوا ينظرون إليها نظرات شك وريبة بسببه. يقاوم فادي رغبته في الاتصال بها، ثم يقول في اليوم التالي بأنه يريد رؤيتها مرة واحدة فقط. يسأل ريتا إن كان لديها مانع من اجتماعهما في بيتها. توافق. لكن زوجة ابن خاله تقفل السماعة ما إن تسمع صوته، عندما سافرت أماني نسي غرامه. ما عاد يريد أي شيء سوى استرجاع عائلته. تمكّن من الحصول على رقمها في أستراليا. هدّدته بألا يعرف شيئاً عنهم طوال حياتهم إن حاول موافاتهم أو الاتصال ثانية.

وجوده الدائم في بيتنا أزعجنا، نتشاجر بشأنه. أحمّل ريتا المسؤولية. أقول إنه لا يستحق أي تعاطف، ترد بأنني قاس وأن كل شخص يتعذب يستحق الرأفة لا الحكم عليه خصوصاً وهو صديق لنا. قلت إنني ضقت من شكواه المتواصلة. لا يدعنا نعيش يلازمنا ليلاً نهاراً. ما عدت أخفي امتعاضي من زياراته، أتركه أحياناً مع ريتا وأخرج أو أنسحب للنوم. أمنعها من فتح الباب حين يأتي. مرة انتظر نصف ساعة عند الباب دون أن يملّ.

ثم ذات يوم اختفى، ظننت أنه سيعود في اليوم التالي، لكن الأيام مرت ولم يظهر، عشرون سنة لم أعرف خلالها شيئاً عن أخباره. لكن وجهه بدا في المنام بأدق تفاصيله، ما أغرب العقل. لماذا أراه الآن؟

أنهض إلى الحمام متمسكاً بالجدار، رأسي ثقيل كصخرة فوق

كتفي. الجروح في وجهي كالحروق تماماً. ليت بإمكاني أن أعيد البيت كما كان، فكّرت، أحس أنني إن نزعت أرضية الخشب سأرى ذلك البلاط القديم. بقع النبيذ التي استعصت على كل مساحيق التنظيف. آثار الشظايا، الصدأ تحت طاولة التلفزيون. أذكر الحمام القديم بالبورسلين الأبيض والرسوم الزرقاء. المغطس الذي تجمعت عند حوافه طبقة كلسية سميكة.

النور غشي عيني بينما أحاول فتحهما. هزّتني أختي طويلاً قبل أن أستيقظ. تريد أن تطمئن عليّ، قالت.

دوامة تدور في رأسي ببطء. وجدتُ أمي جالسة في المطبخ جهة الشمس. ما إن تلمحني في الباب، تبدأ شكواها. كيف أنها لم تنم، الضجة لا تهدأ في الخارج، الكلاب لا تتوقف عن النباح، الفراش رخو غير مريح في النوم، ساقاها تؤلمانها، صوت المصعد، طنين البرغش. تسألني إن تحسّنت. أومئ برأسي. تريد أن تعود إلى البيت. نسيت إحضار أدويتها. لا أعرض عليها شراء غيرها من الصيدلية. أختي واقفة إلى المجلى، تغسل الصحون المكدسة. تقول شيئاً عن الماء البارد والعفن والرائحة. أصب فنجان قهوة بارداً، ثقيل الطعم.

- «دع أختك تحضّر لك قهوة جديدة».

- «ليس عليه أساساً أن يشرب قهوة». ترد أختي بحزم.

لا أقول شيئاً. أفكر أنني سأتحرر من وجودهما بعد قليل. تعاود أمي الكلام عن معاناتها الليلة عن عملية الدوالي. تسألني «هل أجريها؟ أم أنه لم يتبق من العمر ما يستحق»؟ أتظاهر بعدم سماعها. أغمض عيني فيما الدوخة تؤرجح كل شيء أنظر إليه.

- لِمَ يا برهوم تدع بيتك ينهار هكذا؟ كم يكلفك تنظيف البيت كل أسبوع!

- ليست مسألة كلفة، الفتاة التي تنظّف مريضة في المستشفى.

- لم يعد في العالم إلا خادمة واحدة؟ كان المفروض أن تؤمّن هي خادمة تنوب عنها مؤقتاً. هذه هي الأصول.

- ليس في رأسي إلا الخدم، يا أمي، وتنظيف البيوت؟

- لم ترث أخلاق وهدوء أبيك، أخذت الحدة والكلام الجاف من جدك، الله يرحمه.

أسكت متأمّلاً خيوط العنكبوت فوق شجرة الشربين. تضوي كالفضة تحت الشمس.

تعرض عليّ أختي اصطحابي عند الطبيب لمراجعته ومعرفة رأيه في تلاعب ضغطي. أشكرها. أدّعي أن الساعات الأربع والعشرين لم تنقضِ بعد.

لن أذهب للعمل. جهاز الضغط الموصول بذراعي سيثير فضول الجميع ويدفعهم للاستفسار عن صحتي .

عاد الصمت إلى البيت بعد رحيلهما.

عندما تزول الدوخة، أخرج إلى شرفة المطبخ، أقف بالشمس. أنظر إلى امرأة تنشر الغسيل فيما يتبعها ابنها الصغير حافي القدمين، يبكي حين تحاول أن تنزع يده الممسكة بثوبها. تنهمك بالكلام معه. لا يرد. يبكي متشبثاً أكثر بثوبها. ترمي قطعة الثياب من يدها إلى السل. تحمله بين ذراعيها، يضع رأسه على كتفها. تدخل مغلقة الباب الزجاج خلفها.

الصناديق التي أنزلها ثقيلة. يعبق الغبار ويتطاير في أرجاء الغرفة. لا أذكر من وضّبها. أكيد ليست لينا كما خيّل إليّ سابقاً. لا بدّ فعلتُ ذلك قبل زواجي منها. أبعد صندوق الثياب. أفتح الصندوق الثاني. ألبومات الصور مرصوفة في داخله حسب أحجامها. أذكر ألوانها، لا أقوى على فتح أي منها. أعيد إغلاق الصندوق، أحكم

ربط الشريط حوله. في الثالث رسائل وتذكارات جمعتها ريتا. أسحب ظرفاً يعلو الكدسة. تسقط منه صورة. ألوانها بهتت وظهرت فيها بقع. ريتا ترتدي معطفاً بنياً وشال صوف زهرياً. الهواء طيّر شعرها في كل اتجاه. البرد ورّد خديها وأنفها. تمسك بيد رامي ابن عدنان.

قربهما رجل لم يسبق أن رأيته. هيئته ولباسه الريفي يصعب تحديد عمره، خلفهما تظهر تلة وبيوت. في الحقل أعشاب يابسة، لكن زهور البابونج تبين وسط الهشيم صفراء فاقعة. أتأمل النظارات الطبية على عيني ريتا. أفكر «هل كانت تضع نظارات؟» يحزنني أن أكون نسيت تفصيلاً جوهرياً كهذا.

من الظرف تقع الرسالة. المادة اللاصقة فسدت، فانفتحت جوانب الظرف، الصفحات صغيرة القطع، لكنها كثيرة، هذا الخطّ أذكره. دقيق صغير، عندما تتعب في الكتابة تكبر الحروف وتعوج السطور وتتداخل.

السبت 16 تشرين الثاني

حبيبي إبراهيم،

الساعة الآن الواحدة والثلث بعد منتصف الليل، نسمات جلوة تدخل من الشباك. بعد المطرة القوية أحسست بالخريف فعلاً. أتخيّلك غارقاً في النوم. يهدهد المكيّف أحلامك. عساني أمرّ طيفاً فيها. ذهبت مي وعدنان منذ ساعة. حاولت أن أستبقي مي، لم تقبل. سيكون على عدنان أن يوصلها ويمرّ في تلك الشوارع الملعونة. لم يتضرر بيت مي كثيراً. بعض ألواح الزجاج كالعادة. لكن الطبقة الأولى في المبنى احترق نصفها بقذيفة ب7، لولا الناس وهمّتهم لانتشر الحريق وامتد.

شاهدنا فيلم فيديو. لكنه كان خفيفاً لم يرق لي. أعارني عدنان كتاباً L'ami étranger . بدأت به. يعجبني حتى الآن.

الوقت في غيابك يتمطّى ويطول. أحتار ماذا أفعل به. لا العمل لا السهر لا القراءة تخفف من ثقله علي. هذا عدا صعوبة النوم. أؤجله قدر المستطاع. أقول: «أدخّن سيجارة وأنام».

سيجارة تلو الأخرى والنوم بعيد عن عيني. كأنني لا أتعب.

إبراهيم. كم كان وجودك يفرح البيت. حتى حزني مختلف عندما تكون هنا. كأن العالم خلا فجأة. وبقيت وحدي، حولي خراب.

لا أريد أن تقلق كما حصل سابقاً، ألم تعش في بيروت؟ هل نسيت كيف تكون الأخبار مضخّمة؟ ها نحن كالسابق نعمل ونخرج ونسهر. الاشتباكات؟ ما الجديد فيها؟

اتصل بي واحد يعمل معك، عبد الرحمن الوتّار، قال إنه سيسافر بعد أسبوع، سيمرّ بي قبل سفره إلى السعودية، لا يستطيع أن يحمل معه أشياء ثقيلة إذ لا يحقّ له إلا بوزن محدد. فهمت أن ليس بإمكاني إعطاؤه إلا رسالة. سألته إن كان يحمل لي رسالة قال، لا.

لماذا يا أزعر لم تكتب لي بضع كلمات؟ أعلم أنك بعثت لي رسالة منذ أسبوع. لكن ما هذا البخل؟ لو كان بإمكاني لأرسلت لك كل يوم واحدة.

أعيش بانتظار عودتك. بعد اثنين وتسعين يوماً تعود. لن تذهب بعدها إلى أي مكان وحدك. أفضّل أن نعيش بالتقتير على أن أكون بعيدة عنك.

لم أصرف المبلغ الذي أرسلته لي. صحيح ان كل شيء غالٍ والدولار يرتفع أكثر فأكثر. لكنني وحدي، لا أحتاج الكثير. سألت

سلمان رأيه. قال أن أحوّل المبلغ إلى دولار وأودعه في المصرف. هكذا فعلت. لكنني انزعجت لاضطراري أن آخذ القرار وحدي. ماذا لو انخفض الدولار فجأة، يكون تعبك قد ذهب سدى. لكن سلمان أدرى منا في هذا المجال. يقول إنه أقنع والده وكل أقاربه بتحويل أموالهم وحتى رواتبهم مباشرة إلى دولار، لا يهم أن تكون مبالغ قليلة. ستخسر حتماً إن بقيت بالليرة. أترى كم المال يوجع الرأس؟ دونه أفضل، طلع، نزل، لا همّ ولا من يحزنون.

أمي ويارا تسألان عنك دائماً، تصرّان أن أنام عندهما. لكنني لا أستطيع، أحب أن أنام في سريرنا. أن أكون محاطة بألفة أشيائنا. أستغرب بيت أهلي كأنني لم أعش فيه طوال ثمانية عشر عاماً. ينقبض قلبي عندما أطيل مكوثي فيه. كما أن أمي كالعادة تلحّ علي للإقلاع عن التدخين كأنني لا أزال طفلتها الصغيرة. هي لا تعاملني هكذا في حضورك. لكن في غيابك تسترجعني ابنة لها فقط. أعلم أنها تفعل ذلك حباً بي، لكن الاهتمام الزائد يخنقني. «لماذا أنت نحيلة هكذا؟ انظري إلى شحوب وجهك. أرأيتِ السواد تحت عينيك؟».

أقول لها: «لا تخافي أنا كالعفريتة. ليس بي شيء».

في الأسبوع الماضي، جاء إلى المكتب رجل في أواسط السبعينات برفقة زوجته. لا أدري لماذا تأثرت بمشهدهما. أرادا أن يوزّعا على أولادهما الأملاك بموجب عقود بيع شكلية.

أكلمهما فيما أتأمل رقتهما مع بعضهما. فكّرت أننا ذات يوم سنكون عجوزين مثلهما. لكن حبيبي إبراهيم سيكون أجمل بكثير.

العمر لا يخيفني لأنه ينقضي قربك لا دونك.

لا تزعل مني لأنني لا أتصل مؤخراً بأهلك. كلما كلمتهم

عاتبوني لبقائي وحدي. لا أدري ما شأنهم. كي لا يزداد نفوري وعدائيتي تجاههم، قررت أن أتوقف عن الاتصال بهم. سأقول إن خطّي مقطوع أو كنت عند أهلي وينتهي الأمر. من الآن حتى يحين سفر زميلك، سأكتب لك كل يوم.

لن يستطيع القول متأسف ليس بإمكاني أخذ رسالة سميكة كهذه، سأرفق بالرسالة صورة. فكرت أنك سترى القرية التي وصفتها سابقاً، كنت أريد أن أبعث لك بصور أخرى لكننا حين ظهرنا الفيلم، اتضح أن معظمها احترق. تعلم أنت كيف التصوير بكاميرا عدنان السوفياتية. يصرّ في كل مرة على وصفها بالعظيمة أيضاً.

تأخر الوقت، الشمعة تكاد تنطفئ. المحركات تطمس صوت رصاص بعيد. عندما تعود علينا ربما أن نضيف بطارية شاحنة. فالبطارية لدينا تكفي لإنارة لمبة وتلفزيون وفيديو لمدة ساعتين ونصف على الأكثر. نطفئ اللمبة عندما نشاهد فيلماً. أما المولّد، فيوم يخرب، ويوم آخر تحترق قطعة فيه غير موجودة في السوق. حتى صار ككهرباء الدولة «زوروني كل سنة مرة».

الآن سأدعك تنام كي لا أقلق أحلامك بثرثرتي. سأقرأ قليلاً على ضوء شمعة جديدة. لا همّ أن أسهر. غداً الأحد. الأفضل أن أحذفه بالنوم. ليت بإمكاني أن أشطب وأحذف الأيام الاثنين والتسعين الباقية. غداً أكتب لك. نوماً هانئاً يا حلو».

أحتمل البرد وأمكث مكاني. الضوء يقوى تدريجياً. يرتفع الضباب قليلاً فأرى الأشجار. أسمع الجرس. أبحث بعيني عن القطيع. لكنه بعيد جداً. نقاط بيضاء وسوداء تتحرك فيما الرنين يقوى. يغيّب الضباب الوادي بالكامل، ثم يشف ويرتفع. أرى الدرب الذي حفره الماء بين الصخور. غراب ينعق، يعيد الوادي صدى صوته. ألفّ ذراعيّ وظهري بالشرشف القطني. أرتجف من البرد. لم يخطر ببالي أن أحمل جاكيتاً معي. الحرارة قاربت الثلاثين في بيروت.

في الداخل، الكلّ نيام. أتسحّب على مهل، لا أجد في خزانة الغرفة إلا أغطية، أختار غطاء صوف. ألفّه حولي كالعباءة. أخرج مجدداً إلى الشرفة. أنظر إلى الجهة الشرقية حيث الجبال. على قممها الثلج لم يذب. يلمع بياضه تحت الشمس. بانت باهتة كأنها خلف غلالة سميكة، ثم كبر قرصها وشعّ. ينكشف ما حولي تدريجياً. أستطيع أن أرى العصافير على الأغصان أو على العشب تشرب نقاط ماء ربما هو الندى. تحطّ أحياناً داخل الأحواض على الشرفة، تنقر التراب، تتلفت حولها، ثم تطير عند أقلّ حركة. الحديقة حول البيت بدأت تخضر. أميّز فيها شتول البندورة.

النسيم يحمل رائحتها الطيبة إليّ. البقدونس تتماوج سيقانه مع الريح. نبات كثير لا أعرف ما هو رغم أن أنطون البارحة، أصرّ على أن يسميها لنا ونحن جالسون عند العصر. إضافة إليّ وإلى

جوزيف وزوجته ماري لم يدع أنطون أحداً. الحمية التي يتبعها أضعفته. انخفض وزنه أربعة وثلاثين كيلوغراماً. تحوّل وجهه تماماً، فتجعّد وغارت عيناه. ارتخى الجلد في ذراعيه ورقبته ووجهه، حتى جفناه تهدّلا كالمظلة فوق عينيه... تعبه لا يسمح له بالوقوف طويلاً لإعداد الطعام. لذلك اشتركنا جميعاً بما في ذلك أنا الذي لا أجيد تحضير أي شيء. قلت لأنطون سأنوب عنه. يكفي أن يجلس ويعطيني الأوامر فأنفذها. لم يتمكّن من تذوّق أي من الأطباق. قال يحثنا على الأكل «رؤية وشمّ الطعام متعة مساوية لأكله، تفضلوا» ثم رفع كأس ماء ليشرب نخبنا.

قبل أن آتي ترددت. لكن عندما وصلت السيارة إلى الطرق الجبلية استغرقت في ما حولي. الربيع لوّن الأرض والأشجار. كل شيء يبرق. رائحة التراب والزهر تدخل إلى السيارة. عند جوانب الطرق بائعو اللوز والفول الأخضر. في الأعلى، ظلات وخيم تحتها طاولات مدّت فوقها مرطبانات من الكشك والعسل، ربّ البندورة، المربيات، المخلّلات، قناني شراب الورد والتوت. أتوقف لأشتري منها. لا أدري ماذا أفعل بها. أصفّها بعناية داخل صندوق السيارة.

أفكر هل كانت الطبيعة موجودة دائماً أم أنها مميزة في الشمال؟

في الحقول البعيدة فوق التلال، ألمح خيالات محنية تزرع أو تسقي، أسمع رجع غنائهم ونداءاتهم. أنعس فيما النسيم يدغدغ وجهي.

القطيع يقترب أكثر، الراعي يرمي حجراً يصيب به قائمة عنزة. تعود إلى القطيع وهي تعرج، ديك بعيد يصيح. تتبعه الديكة الأخرى.

ليلاً لم ينقطع العواء. قال أنطون إن هناك ذئاباً كثيرة. بعضها يتسلل إلى البيوت حيث الدجاج. نمت نوماً متقطعاً، لكنني

استغرقت فيه دون أحلام. أحببت الهواء البارد واللحاف يغمرني. أفكر أنها المرة الأخيرة على الأرجح. لِمَ سآتي إلى هنا بعد سفر أنطون. أخبرنا في السهرة بقراره. عائلته أصرّت عليه. صحيح أن السفر خطير في حالته. لكن ما جدوى أن يعيش بعيداً عنهم. «أنا هنا يقول وهم في آخر الأرض. لو كانوا في أوروبا، لما شعرت بهذا البعد، لكن كندا..». أطرقت، لم أعلّق بكلمة. جوزيف عرف قبلي. بدا ذلك من كلام أنطون «كلنا سنبدأ أشياء جديدة، إبراهيم في شركته الجديدة، أنا سأعيش حياة مختلفة في بلد جديد. جوزيف سيعيش في العاقورة، البدايات ممتعة دائماً» نظرت إلى جوزيف لأستوضح ما سمعت. أخبرني أن مصرفهم سيندمج مع آخر وقد تُرك للموظفين الخيار في التقاعد وقبض تعويضات جيدة أو الاستمرار في ظل إدارة جديدة. «بضع سنوات ويحين تقاعدي. لمَ أنتظر؟ ما أدراني إن كنت سأتأقلم مع الوضع الجديد. لكن لن نستقر في العاقورة. فقط في الصيف. بيت أهل ماري فارغ. قلنا نستفيد منه ونمكث فيه. بيت حجري جميل. شتاء ننزل إلى بيروت. الأولاد كبروا ورحلوا. تقاعدي يكفينا ويزيد، إن أردتَ نعرج عليه. سيعجبك، عمره مئة سنة».

البستاني يعمل في حديقة البيت. على رأسه فوطة بيضاء تعلوها قبعة قش. يغوص بجزمته الكاوتشوك في الأرض الرطبة. ينصرف إلى اقتلاع الأعشاب الضارة واليابسة. يكومها عند طرف الجلول، يصنع بالشوكة أتلاماً يرش فيها البذور ثم يطمرها بالتراب قبل أن يسقيها. يرفع رأسه جهتي. يقول بصوت عالٍ شيئاً عن الخس. لم أظنه قادراً على رؤيتي في الزاوية التي جلست فيها. الشرفة تمتد على مساحة ثلاثمئة متر تقريباً. النباتات في الأحواض تحجب الجالسين. يلتفت

ثانية يرفع صوته أعلى هذه المرة. يقول إنه وضع غالون الحليب في المطبخ. الخواجه أنطون أوصاه عليه لنشرب حليباً طازجاً. يحتاج إلى تفوير على النار.

لا أدري إن كان صوته ما أوقظهم أم نهضوا من تلقائهم. تصب ماري الحليب في طاسات واسعة، تضع على الطاولة مربيات وجبنة بلدية وبيضاً مسلوقاً وعسلاً، تضحك حين توزّع علينا الكعك.

تقول سنعود أطفالاً نأكل كعكاً مغمساً بالحليب. أنطون يقطع نصف تفاحة في صحن. يأكل القطع الصغيرة على مهل، وجبته رغم صغرها تطول. يقول إن ذلك يعطيه إحساساً زائفاً بأنه أكل كثيراً وأتخم.

أتأمّل الدرابزين الحجر المنحوت. الأحواض التي حفرت عليها ملائكة. قبل اليوم لم أنتبه لها، كم ستبقى هذه التفاصيل في ذاكرتي قبل أن تمحى كأنها لم تكن؟

نجلس بعدها تحت صفصافة ضخمة في الحديقة. وضع أنطون تحتها مقعد حجر لا يتسع إلا لثلاثة. يبقى هو واقفاً. يستمع إلى البستاني يحكي عن الرش وعن الدودة التي نخرت البروكولي. يغيب أنطون بين الجلول ثم يعود حاملاً في راحته حبات فريز صغيرة. يلح أن نتذوقها. يقول إن طعمها أطيب بدرجات مما اعتدنا أكله. نمسحها بيدنا، مزيج من الحموضة اللطيفة والحلاوة العطرة. يقول أنطون إن البيت بيتنا في غيابه وإن بإمكاننا المجيء كما يحلو لنا. المفتاح مع جوزيف. البستاني سيتوكل بالحديقة. سألته لمن يزرعها. قال لعائلته، ما الفائدة من تركها بوراً ومهجورة؟

مساءً كانت الطرقات مليئة بشبان وشابات يتمشون أمام البيوت. جلس الكبار يتأملون السيارات وراكبيها كأنهم يشاهدون التلفزيون. في

الساحات يلعب الأولاد بالكرة. اختفى الباعة عن جوانب الطرق.

أتذكر بيتنا في الجنوب. كان فظيعاً بالنسبة إلي، متداعياً ليس فيه لا أثاث ولا تجهيزات ولا راحة، بعيداً عن الأصدقاء والمتاجر. لكننا ليلة حزمنا أغراضنا جلسنا أمام العتبة. ناصر ساكت كمعظم الأحيان.

تملكني شعور بالحزن. فكّرت أنه مكاننا والآن سنغادره. ربما لن نمرّ بقربه لاحقاً. بعد ذلك عندما سمعنا عن التهجير ومعارك شرق صيدا، فكرنا به كثيراً، كأننا تركنا شيئاً منا هناك. أحب أن أتخيّله قائماً كما كان، لا مهدّماً كما حصل لكل تلك البيوت هناك. كنت أذهب إلى صيدا وإلى صور. لكنني لم أسلك أي طريق تقودني إليه. الآن يتملكني الشعور نفسه كأنها المرة الأخيرة التي أسلك فيها هذه الطرقات. لن تكون نفسها بغياب أنطون.

الهاتف يرن. أختي تقول إن أمي تريد مكالمتي. أسألها عن حالها، ترد أنه لم يكن عليها أن تسمع كلامي وتجري العملية. الحريق والألم كالسابق في ساقيها. من العبث أن أذكّرها أنني لم أنصحها أي نصيحة بخصوص ساقيها، تسأل إن كنتُ بحاجة لموظفين، ثم تسرد عليّ حكاية الجارة. كيف تعرّفت عليها، كم هي ودودة. كيف تؤدي لهما الخدمات. تبقى معها في غياب أختي. «المهم ما المطلوب مني؟» أسألها.

– ابنها بلا عمل منذ حوالي سنتين، صار كبيراً، لا عائلة ولا بيت. يعني شغّله معك.

– بم يعمل؟ ما اختصاصه؟ شهاداته؟

– ما أدراني أنا بهذه الأمور. هو نشيط بإمكانك تشغيله كل النهار وهو لا يقول لا أف ولا آه.

- هذا عمل يا أمي وليس جمعية خيرية للمقطوعين.
- ما به قلبك صار قاسياً هكذا. أمّك تطلب منك خدمة.

عمل كثير ينتظرني غداً. هناك مشاريع كان عليّ رفضها. تعبها كثير ومردودها قليل. نديم يرى أن الدعاية التي تؤمّنها أهم من الربح الكثير. معظمها في سنترات حديثة وفخمة. الكل سيراها.

على الطريق الساحلي لا أرى البحر. أسمع صوته. أحس طعم الملح تحت لساني، أفكّر أن أمر بمي. الوقت لم يتأخر بعد. أتصل بها. تسألني عن هدايا قد تفرح أخاها جورج. أقول إن هناك وقتاً. لن تسافر قبل شهرين على حد علمي، ثم كيف لي أن أعرف ما يفرحه الآن؟ توصيني أن أشتري في طريقي إليها قنينة فودكا. ليس لديها شيء. لم يكن عندها وقت للتبضع. انشغلت بتوضيب الثياب التي ستأخذها معها.

حادث يؤخّر السير. الناس يتركون سياراتهم، يتجمعون مكان الحادث. أشيح بوجهي بعيداً. أسمع صفارات الإسعاف تقترب أكثر فأكثر.

في البحر تلتمع أضواء عند الأفق، قد تكون زوارق صيد. أنتبه إلى أنني غفلت عن تناول أدويتي اليوم.

يرنّ الهاتف، تريد مي أن أجلب معي أيضاً شيئاً نأكله، لكثرة انشغالها نسيت نفسها دون طعام.

أقود بسرعة. الطريق شبه فارغة الآن، أتذكّر أنطون، يده المرفوعة في الهواء تلوّح لي بينما السيارة تبتعد. وعدته أن أراه قبل سفره. أعلم أنني لن أفعل، سأذكره دائماً في وقفته بين أحواض الورد. يرتدي مبذله الحرير ويضحك ضحكة عالية.

عبر الشباك، أرى النور ينسحب عن التلال البعيدة. أضواء البيوت توجّ. الضجة تخف في الحي. أصوات التلفزيونات تتشابك. تختلط نشرات الأخبار بالموسيقى وبالمسلسلات المدبلجة والدعايات. يقول نديم إنني مدمن عمل. آلام شديدة تشلّ رقبتي وظهري وذراعيّ. إنه الجلوس الطويل أمام الكمبيوتر. أحرّك عنقي في كل الاتجاهات. على الشاشة أمامي أقرأ أسباب اعتلال عضلة القلب. في العربية لا تختلف كثيراً عما أقرأه في المواقع الإنكليزية. الكلمات المبهمة نفسها. رغم ذلك كلما توقفت عن العمل أعاود كبس الأزرار. تتوالى الصفحات. حفظت العناوين الرئيسية والفرعية. كأنني أنتظر أن أقرأ عن ريتا في شهورها الأخيرة. صعوبة التنفس، عدم القدرة على القيام بمجهود، عجز في أداء الأمور اليومية، خلل في وظائف القلب الأساسية... ماذا تعني الكلمات؟ لن أعرف ماذا كان يجري في مخيّلتها حقاً.

أحياناً أخفّف عن نفسي. أقول إنها لم تهتم. كانت دائماً سوداوية. شهور عشرة، أعود خلالها بعناد إلى الشاشة، أقرأ شروحات حفظتها عساها تقول شيئاً لي.

نسمات باردة تصفق أبواب الغرف، تطيّر الأوراق عن المكاتب. تشرين الثاني يشارف على نهايته. أطفئ الكمبيوتر. أخرج إلى الشرفة. في الشارع تتطاير أكياس وأوراق. أعناق الشتول أمام

الموقف تنحني حتى تكاد تنقصف. بتلات الأزهار تتساقط وتركض في كل اتجاه. ضوء خفيف يتسلّل من غرفة الناطور. سيارات تركن عند جوانب الأرصفة. كأن الحي خارج بيروت. أتردد في الذهاب إلى البيت. أقرّر أخيراً البقاء. تكرّر نومي في المكتب مؤخراً. بدأ صدفة حين غفوت حتى الفجر جالساً إلى مكتبي ثم تحوّل عادة. جلبت سريراً يُطوى. في النهار أخفيه خلف باب إحدى الغرف الداخلية. في خزائن المطبخ العالية وضعت بعض ما أحتاجه من ثياب قليلة ولوازم الحلاقة والاستحمام. في أدراج مكتبي أدوية وساعتي، مفاتيح إضافية للبيت والسيارة، بطاقات تأمين، كتاب بالفرنسية كان لريتا. أفتحه، أقرأ اسمها على صفحته الأولى وتاريخاً لا أدري إن كان يعود إلى وقت شرائه أم قراءته، إنه الأقدم بين الكتب التي وجدتها داخل أحد الصناديق على التتخيتة. أنزلتها، مسحتها من الغبار، وضعتها في المكتبة جنب كتب الهندسة والديكور والقانون، بعض ما كتبته بالرصاص عند بعض المقاطع مُحي مع الوقت، لا أفهم ما تعنيه الكلمات بالفرنسية. بحثت في القاموس عنها، وجدت بعضها. غالباً ما أفتح الدرج في استراحتي أتلمس غلاف الكتاب المصفرّ. أفتح على الصفحة الأولى، كان خطّها أكبر. الحروف مستقيمة وواضحة. لاحقاً صار صغيراً ومائلاً، أقرأ التاريخ: 15 كانون الثاني 1978.

الحرارة بدأت تنخفض في الأيام الأخيرة من هذا الشهر. نستغني عن تشغيل المكيّفات. في البراد أشياء قليلة: قطعة بيتزا، أتردد في تسخينها، لا أذكر كم مضى عليها من الوقت، خيارتان، قطعة جبن متيبسة قليلاً، رغيفا خبز. أسخّن البيتزا فوق رأس الغاز مباشرة. يحترق العجين. حشوتها تبقى باردة كالجليد. الثلج لديّ الكثير منه.

أضع كل شيء فوق المكتب. أشغّل الموسيقى على الكمبيوتر. أشرب الكأس الأولى بسرعة قبل أن أشرع بالأكل. أسهو بين الحين والآخر فأنام ملقياً رأسي إلى خلف. إحساسي بالوقت غير دقيق. ما أحسبه دقائق يكون أكثر من ساعة.

تخفت الأصوات. البيوت تعتم تدريجياً. نباح بعيد. أنهض حافياً بين الحين والآخر، أملأ كأسي بالثلج والويسكي. أفكّر بالإيميلات التي أؤجّل الردّ عليها. مي كتبت أنها أجّلت قدومها للمرة الثالثة. أرادت أن أتفقّد بيتها ومحلّها. تنهي الإيميل دائماً بعبارة: أراك قريباً. لا أظنّها ستعود في القريب. أنطون لم يكتب أي شيء. منذ بدأ غسل الكلى. الساعة تجاوزت منتصف الليل. الصمت ثقيل حولي. الشاشة أعتمت، لكن الموسيقى تستمر بنغماتها الرتيبة. أعاود ارتداء ثيابي. أترك الأنوار مضاءة. أسمع صوت الراديو في غرفة الناطور. الهواء برد كثيراً. أسارع باتجاه سيارتي.

عندما أخرج بها يكون الشارع خاوياً تماماً. الشقق مظلمة. لا شيء سوى هررة متجمعة عند حاويات النفايات.

أقود على مهل. في الشوارع الأخرى مصابيح الشارع تنير مقاهي الرصيف. أعجب من كثرة روّادها في يوم عادي. أبحث عن شوارع فرعية. أسرع أكثر. أحس بالهواء يبرّد رأسي وجبيني الحامي. نقرات مطر صوتها كالهمس، تُنَقِّط زجاج السيارة، تدخل إليّ عبر الشباك المفتوح. السيارة كأنها تعبر وحدها خفيفة. يشتدّ المطر. أشغّل المساحات. الماء يتقافز فوق الإسفلت، يوج فوق معدن السيارات.

الماء بلّل مقعدي وثيابي أكثر. قشعريرة تسري في جسمي، لا أسمع الطنين في أذني، فقط الماء يغسل كل شيء.

ريتا

في ذاكرتي لا تختلف صورة أبي عن تلك المعلّقة في البهو جنب صورة أختي ساندرا وأخي جورج.

من طفولتي الأولى لا أذكر إلا أشياء مبهمة. يوم وقعت في الحديقة وارتطم رأسي بحوض الباطون. أذكر يدي تتحسس موضع الجرح وتصطبغ بالأحمر، الدم يكرج على وجهي وينقط من رموشي. أبي يحملني ويركض بي، أذكر رائحة السبيرتو والمطهّرات. الرائحة التي حتى اليوم تعيدني إلى ذلك الأحد البعيد. أمي لا تقترب منا عندما نصاب بجروح. أبي من يفعل، في غيابه يارا تداوي جروحنا. تكبرني بسبع سنوات. كانت دائماً بمثابة أم لي، لا بسبب فارق السن، بل لأنها ما شاطرتني أياً من ألعابي في صغري. كأنها وُلدت كبيرة.

حتى دخولي المدرسة وبعدها بسنوات كنت أجهل عمل والدي. ما أسمعه أنه في الصيدلية. عندما يسألني أحدهم عن عمله أجيب «يروح إلى الصيدلية» دون أن أفهم فعلاً ما تعنيه الكلمة. «تقصدين أنه صيدلي.» هكذا صار أبي صيدلياً. لن أعرف أنه ليس كذلك إلا حين أكبر قليلاً. يارا من يصحّح لي، قالت إنه يدير صيدلية وليس صيدلياً. صحيح أنه يفهم بالأدوية، لكنه لا يحمل شهادة في هذا الاختصاص.

منه لا أذكر إلا رائحة الكولونيا التي ترافقه صباحاً، قبعته

الشتوية المستديرة، معطفه الكحلي، أنامله الطويلة وحقيبة سوداء كانت ترافقه في ذهابه وإيابه. يخيّل لي أحياناً أنني استعدت ذكريات تتعلق به، ثم أنتبه إلى أنها ليست كذلك بل قصصاً عنه سمعتها على لسان أمي أو يارا.

طوال عيشي في بيت أهلي لم يتبدّل أي شيء في أثاث البيت. الكنبات، الخزائن، السجادات نفسها. حتى الصحون والأواني والشراشف قلّما أذكر تغييراً فيها. باستثناء المرة التي أحرقت فيه شظايا طائشة محرك البراد. استبدلنا البراد بآخر. لكنه لشدة ما يشبهه تهيّأ لي أنه البراد القديم نفسه. وحدها الستائر تتبدل وفق الفصول. هناك ستائر من المخمل النبيذي للشتاء. صيفاً تستبدل بأخرى شفافة من الدانتيلا السكرية اللون. كذلك أغطية السرير.

استمرّت أمي في الهيئة التي أذكرها لها. لا تختلف عن صورها القديمة. كثيرون يرون شبهاً كبيراً بيننا. تشبيهي بها كان يزعجني في صغري. لم أرد أن أشبهها في شيء. لا تضع لا كحلاً ولا أحمر شفاه ولا تلبس إلا ثياباً سوداء. أردت أن أكون كأخوات رفيقاتي في ثيابهن الملونة، في ضحكهن الصاخب وأسرارهن. أردت أماً تشبه أولئك الأمهات في أثوابهن القصيرة وأحذيتهن ذات الكعوب العالية.

وحدها صور العرس تظهر أمي مختلفة، ثلاث صور بالأسود والأبيض واحدة منها موضوعة في إطار نحاسي فوق الكومودينة.

كانت أمي امرأة صامتة بالإجمال. حتى حين تأتي الجارات لشرب القهوة لا ينطلق لسانها، ولا تتحمس مثلهن في الحديث عن أولادها أو زوجها أو مشترياتها. قلّما تبادر لزيارة أحد، ما دفع بعضهن إلى الامتناع عن المجيء إلى بيتنا. تصرف نهارها في العمل

داخل البيت. أما الأقارب الذين يسكنون قريباً منا فما كانوا يزوروننا إلا في حالات المرض أو في الأعياد للتهنئة. عمتاي لم تحبّا أمي. تقولان إنها متعالية ولئيمة. لا أدري كيف علمت أمي برأيهما أو من نقل إليها هذا الكلام. لكن الأكيد أنه حفر عميقاً فيها بدليل تكرارها له دون مناسبة. عندما كانت تلحّ علي لزيارة عمة منهما أقول: «أنت لا تحبينهما وهما كذلك فلمَ هذه المجاملات الكاذبة؟» ما كنتُ أتقصّد جرحها بل دفع إصرارها بعيداً عني. تسكت حينها. لكنها لاحقاً تقول إن زعلها من كلامهما لا يعني عدم محبتها لهما. هما في الأخير ابنتا عمها وأختا زوجها.

لم تكن أمي تقسو عليّ حتى حين صرت أردّ عليها بكلام جاف أو أتمرّد على ما تطلبه. يارا من تفعل. أجابهها: «أنتِ لستِ أماً لي ولا مسؤولة عني».

تشكوني لأمي قائلة إن رأسي عنيد لأن أحداً لا يربيني أو يضع لي حدوداً. تتهمها بإفسادي وتدليلي. لكن أمي لا ترد.

كنت أحسب ألف حساب ليارا، لا أحد غيرها في البيت. سواء تعلّق الأمر بعلاماتي أم بسلوكي. عندما أستأذن أمي لألعب مع رفيقة من جاراتي، يارا من يمنعني أو يسمح لي. هي من يشرف على عنايتي بفروضي. تؤنّبني طويلاً عندما لا تكون علامتي ممتازة. لم تكن تطالبني بالنجاح بل بالتفوّق. أعلم أن نَيْلي علامة متفوقة لن يرضيها. يجب ألا يكون أحد قد نال أكثر مني أو مثلي حتى. في الصفوف الابتدائية، لا تكتفي بحفظي لدروس العلوم والتاريخ والجغرافيا، بل علي أن أكتبها كلها غيباً دون أي خطأ لغوي. غلطة واحدة كفيلة بجعلي أعيد الكرّة. تمضي الساعات وأنا مسمّرة على الكرسي محرومة من اللعب. أيام الامتحانات توقظني أبكر من

المعتاد. أنهض بثقل في العتمة. أبدأ بالتسميع قبل أن أغسل وجهي أو أفتح عيني. تنهال علي بالأسئلة فيما ألبس أو آكل فطوري. دعوة أمي لأن تتركني وشأني لا تلقى منها أي اهتمام. تستمرّ في تحزيري حتى أتمكّن من الردّ على الأسئلة دون أي تلعثم أو تردد. لذلك اعتادت معلماتي على ملاحظة قلقي واضطرابي إن انخفضت علامتي إلى مستوى جيد جداً أو جيد.

انتظرت حتى المرحلة الثانوية لأخرج عن سيطرتها. ربما التبدّل الجسماني أيضاً ساعدني على مواجهتها. خلال صيف واحد، كبر جسمي وتجاوزت يارا طولاً. لكنها حتى حين نتبادل حديثاً عادياً بقيت تكلّمني بتلك اللهجة الآمرة. أخفي عنها أبسط الأسرار. حتى دفتر يومياتي ورغم علمي أنها غائبة عن البيت، آخذه معي، أضعه في حقيبة المدرسة خشية تطفلها وقراءة ما فيه. إلحاحها لاحقاً بشأن اختصاصي الجامعي حملني إلى اختيار اختصاص لا يعجبها ولم تأت على ذكره أو تشجيعي عليه.

أعاشر وأرافق الفتيات اللواتي لا يعجبنها. كانت من تنوب عن أهلي في السؤال عني في اجتماعات الأهل. توقّع دفتر علاماتي. توصلني إلى المدرسة. تصطحبني إلى سوق الطويلة لشراء ثيابي. مشوار كنت أقوم به مرغمة إذ ينتهي الأمر بشراء ما اختارته لي لا ما أعجبني. الغريب أنها نسيت كل ذلك. عندما تحكي عن طفولتنا، تقول رغم فارق السن كنا أشبه بتوأمين. نتشارك كل شيء ونتّفق رغم اختلافنا أحياناً في كل ما يخصّ الأشياء الأساسية. أوافقها دون أن أثير أياً من الذكريات القديمة. بعد تخرّج يارا من دار المعلمين، أُلحقت بمدرسة بعيدة. خلال سنة تدبّر لها أبي واسطة لتُنقل إلى أخرى قريبة. كانت تعلم مادة العلوم ثم أوكلوها لاحقاً

بتعليم اللغة الفرنسية أيضاً. الحرب أحدثت نقصاً في أعداد المعلمين.

العمل بدّلها، باتت لأول مرة تشبه الفتيات في مثل سنها. ما عادت تشتري تلك التنانير الغريبة ولا ترتدي كنزات أمي الفضفاضة. ربما لم يكن العمل هو السبب الوحيد في تبدّلها لكنني لا أستطيع أن أعرف. كانت تصطحبني معها إلى جمعية دينية الطابع، حديثة العهد. تعقد للشبان اجتماعات أسبوعية لمناقشة أمور دينية تشغل الشباب والمراهقين. يدير حلقة النقاش مشرف قد يكون كاهناً شاباً أو أحد المسؤولين من الجمعية. كانت يارا واحدة من المسؤولات. يرافقها شاب فهمت أنه بعد انتهاء دراسته الجامعية سيلتحق بالسلك الكهنوتي. لكنه بدا مختلفاً عن الكهنة والرهبان. ليس بطريقة لباسه بل بمزاحه وبعلاقته المتحررة مع الفتيات. كانا كلاهما نشيطين في الجمعية. لزيادة عدد المنتسبين، نظّما مخيمات ترفيهية، رحلات، سهرات تجري خلالها مسابقات كانتخاب أجمل وأفضل ثنائي راقص. ما كنت أستغربه حقاً هو أن تكون يارا واحدة دائماً من الحكام لمثل هذه المسابقات. هناك نشاطات كانت تصطحبني إليها وأخرى تدعي أنني لا زلت صغيرة لأشارك فيها، أو أنها لن تعاملني معاملة خاصة وتسمح لي بما يمنع على غيري ممن هم في مثل سني. كان اسم سيمون يتكرر على نحو دائم على مدى سنوات، ثم صار يأتي لزيارتنا وينام عندنا. كان واضحاً للجميع في البيت وفي الجمعية أنهما متحابان. حتى بعد أن سافر ليكمل دراسته العليا، استمرّ تراسلهما إلى أن توقف. كأن لفظ اسمه صار محظوراً فجأة. سنوات تحاشينا الكلام عنه كأنه لم يكن. يارا أيضاً غادرت الجمعية واسترجعت ثيابها وعاداتها القديمة.

كنا ننام في غرفة واحدة. يفصل بين سريرينا شباك عريض، تواجهه خزانة. قرب سرير يارا لصق الجدار مكتبة خشب. كنت أكدس كتبي أرضاً قرب سريري، أرمي فوقها ثياباً خلعتها أو جربتها ولم تعجبني، أكوّم الأحذية أيضاً. ما يطيّر عقل يارا. حتى الخزانة المشتركة، مقسومة إلى درف ثلاث، واحدة لي، أخرى ليارا والدرفة في الوسط مشتركة بيننا، نضع فيها قطع الثياب الطويلة كالفساتين والمعاطف، لكنني استخدمت أرض الدرفة لتكديس كل ما لا صبر لي على تعليقه. أحياناً تسكت، ترتب الخزانة دون مساعدتي. تغسل وتكوي وتمسح الأحذية. تضع كتبي في المكتبة ظناً منها أن ذلك سيجعلني أكثر تنظيماً. لكن ما إن أدخل غرفة النوم حتى تبدأ الفوضى. الترتيب لا يحمسني تقول إلا على مزيد من النبش وإن مقاسمتي الغرفة كالعيش وسط مزبلة. تقترح أمي أن تنتقل إحدانا إلى الغرفة الأخرى. لا تقول: «غرفة جورج»، ولا نحن نسميها كذلك. نشير إليها بـ «تلك الغرفة». اقتراحها يعيد الوئام إلينا. نسكت ويتوقف شجارنا إلى حين. غرفة أخي تستخدم إن نام عندنا زائر ما. لم يبق في غرفته شيء من أغراضه، عمتي حزمت كل أغراضه، أخفتها عنا بعد وفاته بأسبوع ثم تبرّعت بها إلى جمعية للأيتام وكذلك فعلت بالألعاب. حتى ملاءات السرير انتزعت عن الفراش، بقي الفراش عارياً هكذا لوقت طويل، الخزانة خاوية. لاحقاً استخدمتها أمي لتكديس بطانيات ومخدات. أنا فقط احتفظت بدفتر رسم كان له وبكتاب «الهرّ أبو جزمة» قصة كان لا يملّ من سماعها. أعاد نسخ العنوان على الصفحة الأولى. فعل ذلك ما إن بدأ تعلُّم الكتابة. الحروف غير واضحة خصوصاً حرف الهاء والتاء المربوطة. في أحلامي أراه أمامي فجأة، حين أكلّمه لا يعرفني.

أحياناً أعاتبه. قد أراه مريضاً فأحمله وأعدو به لكنه يقع من بين ذراعي وينكسر ألف قطعة كالإناء. أصرخ بصوت مدوٍ يوقظ يارا، ثم إبراهيم لاحقاً. سنوات كنت أراه خلالها في نومي، ثم تباعدت المنامات.

اليوم لا أذكر ملامحه بوضوح. أذكر النظرة في عينيه، ذراعيه الرفيعتين، صوت أنفاسه يعلو مع كل خطوة.

من مدرستي التي تعلمت فيها حتى بداية الحرب، لم يتبقّ إلا جزء من سورها الشرقي، بضع شجرات سقيمة، جرن ماء قديم في الحديقة، المباني تحوّلت ركاماً من الحجارة تعشش فيها الدبابير، البوابة صدئة لا تزال مقفلة بالسلسلة الحديد نفسها. عندما رأيتها بعد توقف الحروب، لم أستعد أشياء كثيرة عن حياتي فيها رغم بقائي حتى الصف الرابع المتوسط.

ربما لأنني لم أتخذ فيها صديقاً أو صديقة. هذا لا يعني أنني كنت وحدي. بالعكس كنت محاطة دائماً برفاق ألعب معهم، نتبادل المجلات المصوّرة وشرائط الموسيقى. لكن ما إن أخرج من البوابة حتى أعود إلى عالمي. لا يُسمح لي بحضور أعياد الميلاد، ولا بالخروج مع رفاقي لمشاهدة فيلم سينما ولا إلى البحر. أقصد الشاطئ صيفاً لمرات قليلة برفقة يارا. لم أكن أنزعج من هذه المحظورات. لا بل كنت أمنع عن نفسي أشياء دون أن يفرضها أحد. لم يعترض أحد على استقبال رفاق مدرستي، لكنني لا أدعو أياً منهم، لا بل أخشى أن يمرّ بي أحدهم صدفة. اردت ألاّ يرى أحد أختي ساندرا. ساندرا التي تخيفني كأنها ليست أختاً لي، بل كائناً مرعباً يقبع فوق السرير. أخاف من عينيها تتبعاني ما إن تلمحني. عبثاً تقول أمي: «اقتربي من أختك، انظري كيف تتعلّق عيناها بك ما إن تراك». أخاف من فمها الفاغر، من شفتيها

المشققتين، من لسانها يتدلى من فمها. من همهماتها وعويلها العالي. أتذكر أمي جالسة جنبها في السرير، تكشّ الذباب بعيداً، تطعمها حساء. ما يقع خارج فمها أكثر بكثير مما يدخله.

ليلاً أسمع الأصوات تبدأ بالحشرجة تتحول إلى خليط من البكاء والصراخ. أخبئ رأسي بالأغطية. أسمع أبي يحاول إسكاتها. لا تفعل إلا حين تغني لها أمي بصوتها الشجي. تهدهدها النغمات فتغفو.

عندما أنجبت أمي أخي جورج، ترك أبي غرفة النوم إذ لا تتسع لأربعة أشخاص، لكن ما إن يسمع ساندرا أو بكاء جورج حتى يهرع لمساعدتها. توقّعت أمي أن تغار ساندرا من أخيها، لكنها كانت تحملق فيه مستغربة هذا المخلوق الصغير، يرتسم على فمها ما يشبه الابتسامة. ثم صار كالمهدئ بالنسبة إليها. عندما تستولي عليها نوبة غضب، تضع أمي جورج قربها فوق السرير، تلاحق عيناها حركاته، يده المستديرة التي تحاول الإمساك بالقدم المرفوعة في الهواء. تشركها أمي ولو من بعيد الاهتمام به. تكلّمها كأنها تفهم كل شيء، تؤلف لها ألعاباً وأغاني.

بسبب جورج كنت أدخل الغرفة من حين لآخر، أحب أن أرى عينيه تترصدان حركتي. حتى أن أمي منعتني من المرور قربه حين تطعمه من رضّاعة الحليب. إذ يتوقف عن الرضاعة محرّكاً جسمه باتجاهي رافعاً يديه لأحمله.

كان جذع ساندرا يطول وتبقى ساقاها على حالهما، عندما يجلسونها على الكرسي المتحرك يتقوّس ظهرها حتى يكاد فمها يلامس ركبتيها.

لم أرد أن أعرف عنها، كأن وجودها عقاب لي. أنسحب ما إن

يتناهى إلى مسمعي حديث الأطباء والاستشارات والأودية. كنت كمن يخفي سراً، يحكي رفاقي عن آبائهم وإخوتهم وأمهاتهم. أما أنا فكنت أصغي. أتهرّب من الأسئلة المتعلقة بهم. يارا الوحيدة التي يعرفونها إذ يرونها توصلني صباحاً وتأخذني بعد الظهر. أستغرب قولهم عنها بأنها جميلة. كيف تكون كذلك وهي مختلفة في كل شيء عن كل النساء.

عندما ماتت ساندرا، بكيت حتى يسمح لي بعدم البقاء في البيت، والذهاب كالعادة إلى المدرسة. خفت أن تعلم المدرسة بوفاة أختٍ لي إن غبت. بعدها لن يبقى الأمر طيّ الكتمان، الكل سيعلم أن لدي أختاً كساندرا. الغريب أن صورتها في البهو تُظهر وجهاً طفولياً وديعاً لا أذكره على الإطلاق.

لم يصبح لديّ صديقات فعلاً إلا في المرحلة الثانوية. تسجلت في ثانوية رسمية. ما عاد ممكناً تحمّل أقساط مدرسة خاصة. كانت تعويضات العمل الخاصة بأبي قليلة. أودعتها أمي المصرف لتصرف على البيت معتمدة على الفائدة المالية. يارا تتكفل بكل ما يتعلق بلباسي وبتعليمي.

في الثانوية الرسمية، صرت شخصاً آخر. أحبّ المدرسة. يزعجني الانقطاع الطويل عنها. فيها أشعر أنني حرة. أذهب وأعود وحدي. أتأخر في الرجوع إلى البيت. لكن ذهابي إليها كان متقطّعاً ومتباعداً.

المعارك تدور في شوارع حولنا. تمضي أيام وأسابيع لا نتمكن خلالها من التجول في غرف البيت. سكنّا في الممر الضيّق الذي يفصل غرف النوم عن بقية البيت. كنا أوفر حظاً من الذين مكثوا في مستودعات بلا ماء ولا خبز ولا كهرباء. كانت أمي على خلاف

الكثير من الأمهات تجيد إعداد خبز شبيه بالذي نأكله. صحيح أنه سميك ويتفتت، لكننا اعتدنا عليه مع مرور الوقت. كنا كغيرنا نتدبر أمورنا بالقليل الذي لدينا. متى يتوقف الرصاص ننطلق في نوبة شراء. نكدس المعلبات. نملأ البيت بكل ما نجده في الأسواق. قد نحرم من السكر أو الغاز أو الطحين أو الأرز. لكن هناك دائماً حلولاً. كانت أمي مدبّرة بطبيعتها. تستخدم طحين الذرة إن فُقد طحين القمح. المعكرونة أو البرغل في غياب الأرز. أذكر الكثير من الطعام تعدّه على نار جمرات قليلة في المنقل. حتى الاستحمام لا نهدر ماءه. نجمعه لاستخدامه في المراحيض.

تعلّمنا في تلك الفترة أن نُنبت في الأصص نعناعاً وكزبرة وبقدونساً وبصلاً، نستغني عن اللحم في اليخنة.

ما إن يسود الهدوء حتى نهرع إلى مدارسنا، تُلغى العطل كي نعوض ما فاتنا. أدرس في بيتنا مع جوانا. على عكسي تبادر جوانا لمكالمة أختي وأمي، تعانقهما، تقبّلهما عند وصولها وعند مغادرتها. في حين أكتفي أنا بتحية خافتة لأهل بيتها. عندما تنام عندي، تتخلى لها يارا عن سريرها. لا يهمّ أننا لا ننام أصلاً ونقضي الليل في حديث حتى الصباح. نفتح الشباك، ندخّن واقفتين إليه سواء كان الطقس ماطراً أو صاحياً. المهم ألا يباغتنا أحد ونحن نفعل. السجائر تأتي بها جوانا، تسحبها خلسة من علب متنوعة لأبيها، لأمها. ولأخوتها. ندخن هذا الخليط، نكتم ونخنق سعالنا كي لا نوقظهما. كانتا كلتاهما تتقصدان عدم الدخول علينا فجأة. أمي تسعل في الممر، يارا تُحدث صوتاً بحذائها أو تبدأ بمكالمتنا في الممر قبل أن تصل إلى باب الغرفة. تفرحني هذه الحياة السرية. أقنع نفسي أنهما غافلتان تماماً عما يجري فيها.

كانت جوانا مختلفة عني، في المدرسة يتساوى عندها الصفر بعلامة ممتازة. لا تحسّ بضغط الامتحانات أو الفروض لأنها لا تعتبرها واجبات عليها إنجازها. تفعل ذلك من حين لآخر لمجاراتي. تواجدي في بيتها كان يربكني لا بسبب والديها، إذ هما يعملان ويعودان متأخرين لكن بسبب أخوتها الصبيان. لا يأتون وحدهم. دائماً برفقة أصدقائهم. لا تجد جوانا صعوبة في ممازحتهم، في مجاراتهم بأحاديثهم أو المشاركة في مشاريعهم. أما أنا فكنت أصاب بالخرس. أردّ على أسئلتهم بإيماءات من رأسي.

عندما أتفحّص الروايات في المكتبة وأسألها عن كتاب بينها، تقول «خذيه» دون أن تنظر إليه. أعاود سؤالها إن كان لها. تجيب «لا يهمّ بإمكانك أخذ ما تريدين، لا أحد ينظر إليها» كتب تقول كانت لوالدها.

لا تكبرني إلا بسنة رغم ذلك أحسّ معها أنني طفلة صغيرة. أتلعثم وأعجز عن نطق جملة واحدة بحضور الآخرين. تصطحبني لملاقاة جاد. أمكث بعيداً بينما تكلمه. أحياناً تومئ لي أن أذهب دونها. لا أدري لماذا يشعرني ذلك بالوحدة فعلاً، بالغيرة منه إلى حدّ الكراهية. أتظاهر بالتخفيف عنها عندما تختلف معه وينفصلان. لكن في قرارتي، أفكّر أن لا شيء بعد الآن سيبعدني عنها. أليست أول صديقة فعلية لي.

تعلّمت منها أن أهتمّ بلباسي. تعيرني بعض ما لديها. نعدّل معاً فستاناً فنقصّره أو نغيّر أكمامه. نحوّل البنطلونات إلى تنانير طويلة تناسب الموضة. نحوك كنزاتنا بأنفسنا. دائماً لديها مجلات للموضة. تتأمل الثياب فيها تدلني على أحدها وتعزم على خياطته بنفسها. في السنة الثانوية الثانية، تعرّفت على فتاة جديدة اسمها آمنة. ربما ما

دفعني إلى الحديث معها أنها تفوقني خجلاً، آمنة هي الصورة النقيض لجوانا. قالت إنها تستغرب هنا كل شيء المدرسة، الشوارع، الناس.

كان بيتهم في عين الرمانة. خرجوا منه بما عليهم، تركوا كل شيء وهربوا. الآن يعيشون مع خالها. لكن الشقة ضيقة. سواء في فرصتنا القصيرة أو في الدقائق القليلة بين الحصص أراها منشغلة بالكتابة أو القراءة. كانت مثلي تصاب برمد الربيع. ندهن جفوننا بالمرهم نفسه في الصف ونضحك. تسألني عن بعض دروس الكيمياء إذ فوتت عليها المدرسة طوال الفصل الأول. أدعوها إلى بيتي. من حين لآخر ندرس معاً. تقول إنها ستتخصص في الطب. منذ صغرها تخطط لذلك. صحيح أن والدها بلا عمل، لكن أحد أصدقائه الحزبيين وعده بأن يدبّر لها منحة إلى رومانيا أو أي بلد اشتراكي.

ربما ألمانيا، الطلب عليها أقل. تعلم الألمانية يتطلب وقتاً أطول من لغات غيرها. كنت أحس أنها قادرة على المضي في أي طريق تختاره. حين ندرس معاً، لا ترتاح، لا تجوع، لا تتعب. أسألها: «هل أنت آلة؟ مت جوعاً ألا تريدين أن نتوقف؟».

عندما تلتقيان في بيتي لا تتبادلان أكثر من التحية. لإغاظتها تتصرف جوانا بألفتها المعهودة مع أمي وأختي. تخلع حذاءها، تستلقي على الفراش، تفتح البراد، تختار منه ما تأكله أو تشربه. بعدها تصير ملحة فجأة لنخرج في نزهة إلى الحديقة القريبة منا. هذا ما يربك آمنة ويعجل في ذهابها. تخرج دون أن تودّع عائلتي. استمرت صداقتي بجوانا إلى حين دخلنا الجامعة. بعد السنة الأولى. انشغل كل منا بحياته، الآن لا أعرف شيئاً عن أخبارها.

أما آمنة، فآخر ما علمته يعود إلى آخر أيام المدرسة عندما تيقنت أن عليها انتظار سنة أخرى للحصول على منحة. لا أدري إن حصلت عليها أم بقي الأمر وعداً.

حين أذكرها الآن، أراها بشعرها الطويل الأملس، بجفنيها المتورمين وذلك الاعتكار الدائم في بياض عينيها.

عرفت إبراهيم قبل تعارفنا. لم يكن هناك ما يميّز هيئته. لم يطلق لا شعره ولا لحيته أسوة برفاقه. بدا ملفتاً باختلافه وسطهم. أراهم من الشرفة. بيت جوانا يواجه المركز الحزبي تماماً. الجيران وسكان المباني يعرفونهم. يلقون عليهم التحية في مرورهم قربهم. بعضهم يتوقف حتى لمحادثة أحد الحراس. أكثر من أذكر آنذاك من رفاق إبراهيم عدنان. يأتي غالباً برفقته. لم أعرف أن الأسماء التي يتنادون بها ليست أسماءهم. لذلك بقي اسمه بالنسبة إلي «داود». أحياناً يمضي شهر دون أن ألمحه. جوانا تعرف بعضهم. يقطعون الشارع حين يلتقونها ليصافحوها. يسألونها عن أحوال أخيها ميشال. رغم قربها مني أبقيت إعجابي بإبراهيم سراً عنها. أول ما أفعله حين أزورها هو الخروج إلى الشرفة. لا يهم إن كان الطقس ماطراً.

في تلك السنة رغم العطل في بدايتها، تعلّمنا لشهور دون انقطاع. حتى جوانا باتت تبدي اهتماماً جديداً بالدروس، وتحسب حساباً للشهادة التي سنتقدم لامتحاناتها. كانت الحرب تبتعد عنا قليلاً لتشتعل في أماكن أخرى .

لم يكن المركز هو المكان الوحيد الذي أصادف فيه إبراهيم. ألتقيه في المدارس التي نتطوّع لتوزيع الإعاشات فيها على المهجّرين، في حملات التبرع بالدم. نشاطات تجرني إليها جوانا منذ أعجبت برفيق أخيها. أحياناً يكون إبراهيم لصقي أو أمامي لكنه

لا ينتبه لوجودي، كأنني غير مرئية. حتى حين أوقع صندوق أدوية فوق قدمي، اعتذر طويلاً، قرّب لي كرسياً أجلس عليها. وقف قربي حتى تأكد أنني قمت دون وجع. كأنه ينهض كل يوم بذاكرة جديدة لا صور فيها. لا يمكن أن أحصي عدد المرات التي صادفته فيها. أبتسم له تلقائياً ما أن ألمحه كأننا صديقان قديمان. لكنه حين ينتبه ينظر حواليه ظناً منه أنني أبتسم لشخص ما غيره.

كانت نشاطات المركز كثيرة في الحي، يوزّعون غالونات بنزين أو مازوت، أو السكر وأشياء أخرى لم أعد أذكرها. يحصل أن تختلط الأمور ولا يكون ترتيبها الزمني صحيحاً في رأسي.

أردتُ أن أبقي إبراهيم لي وحدي. حرصت رغم اضطرابي ما أن ألمحه على إخفاء كل شيء عمن حولي. زيادة في الحرص لم آتِ على ذكره في يومياتي. كيف أقع في غرام شخص لم أكلّمه ولا أعرفه. عندما يطول غيابه أحس بنوع من اليأس. لا أتحمس للأحاديث حولي. تلك التي يدور معظمها عن الجامعات والاختصاصات. حين أُسأل عما أنوي فعله أجيب «لا أعرف». أخاف عندما يطول غيابه. أفكر أنني فقدته للأبد. شغلتني قليلاً الفترة التي انصرفت فيها للمراجعة استعداداً للبكالوريا. في المراجعة الثانية بدأت تفتر همتنا. أجّلت الامتحانات مرة وثانية وثالثة حتى فقدنا الرغبة في الدرس. صوت القصف والرصاص لا ينقطع. نهاراً نسمعه بقوة ترتجّ لها الجدران كأنه يحدث في الشارع. من حين لآخر تفلت القذائف باتجاهنا فتخلو الشوارع في لحظة. لكن بالإجمال لم تتأثر حياتنا. كانت الحرب في الجهة الثانية.

أقضي معظم وقتي في البيت منذ ذهبت جوانا إلى الجبل عند بيت خالتها. أتمشى من حين لآخر جهة بيتها. لكن لا أثر لإبراهيم.

تستغرب يارا إهمالي التام للدرس. تقول: «ماذا لو عيّنوا موعداً قريباً لتقديم البكالوريا؟ كيف سيكون لديك متّسع من الوقت لتراجعي جيداً؟».

- «أتظنين أن علي أن أراجع الدروس إلى ما لا نهاية؟».

ارتاحت أمي عندما قررت دخول كلية الحقوق. لا لأن الاختصاص يعجبها بل لأن الجامعة قريبة من البيت. في غياب جوانا، عدت للاستغراق في كتب استعرتها وأخرى كانت ليارا. مساء نفتح باب الشرفة. النسمات الحارة تأتي محملة بروائح البارود والحرائق. أذكر صمتنا وانشغال كل منا في ما يفعل. أمي تنعوس على كرسيها. يارا تكتب تقارير وتقرأ كتباً وأوراقاً تتعلق بالجمعية. أنا أخيط حقيبة قماش كبيرة. أزيّنها بالتطريز عليها.

لم تكن لا أمي ولا أختي بهاويتين للأعمال اليدوية كالخياطة والحياكة. تعلمت ذلك من جوانا ومن رفيقاتي في المدرسة. كنّ يصنعنَ عقوداً أيضاً وأساور من الخرز الملوّن والأحجار والأصداف .

مع مرور الوقت ما عدت أغادر البيت ولا أتمشى جهة المركز. أستيقظ متأخرة. أبقى في السرير. أتناول كتابي عن الأرض قرب سريري. لا أنهض إلا حين ترغمني يارا على إخلاء الغرفة لتمسح أرضها. أقوم بثقل، أجرّ قدمي لأستلقي على الكنبة في غرفة الجلوس. أكمل ما كنت أفعله. لا أستجيب لأمي عندما تطلب مني النزول عند بائع الخضار أو إلى السوبر ماركت. تسألني مراراً عن سبب اعتكافي في البيت مهملة المظهر هكذا. تحثني على الخروج مع يارا. كنت أشعر في أعماقي بأنني متروكة تماماً ووحيدة. إبراهيم لا يحس بوجودي.

اقتراب موعد دخولي إلى الجامعة لا يُثير في نفسي إلا الحذر. في قرارتي كنت أتمنى ألا أفعل. عندما عادت جوانا كان لديها الكثير من الأخبار الجديدة. أسمعها تحكي فيما أرغب أن تسكت وترحل. دعواتها المتكررة لأزورها أو لأخرج معها لا تلقى مني أي قبول. عندما أفعل أخيراً، نذهب إلى البحر، الناس قلائل على الشاطئ. في الخريف يقلّ عدد السابحين حتى لو قاربت الحرارة الثلاثين. البحر هادئ. الموج يتأرجح بنعومة. أرى في قعر البحر الحصى الملساء، أعشاباً خضراء، أسماكاً صغيرة تشبه السردين تمرق بين أصابعي، ملمسها كالحرير. تناديني جوانا لأخرج من الماء، لا أفعل. صوت البحر الرتيب يطغى على القصف الذي قوي مع بدء الخريف. أستلقي على ظهري يحملني الموج. نقاط ذهبية تلتمع فوق جسمي. جوانا تحبّ الشمس. أفضّل الماء. أخيراً نتفق على الاستلقاء قريباً من الماء. تخبرني عن أولاد عمّها كيف هاجروا إلى ألمانيا. تقول إنها تحبّ لو تلحق بهم. لكن والدها لا يقبل. ماذا ستفعل هنا؟ المجال الذي تحبّه لن تتخصص فيه.

عندما تعلم جوانا بعلاقتي بإبراهيم تحاول أن تذكرني بأننا نعرفه، على الأقل سبق ولمحناه، تحكي عن المركز، تصف عدنان لتنعش ذاكرتي. أرد أنني لا أذكر. بعد لقاءات قليلة التصق واحدنا بالآخر. أهمل المحاضرات. أعود إلى البيت ليلاً حتى تنفد الأعذار كلها مني. أعلم أن لا أمي ولا يارا تصدقان ادعاءاتي. «أدرس عند رفيقة، كنتُ عند جوانا».

الليل صعب عليّ دائماً، أقتل ساعاته بالقراءة. أنسى نفسي دون طعام. أستيقظ مراراً بانتظار الضوء والذهاب مجدداً لملاقاة إبراهيم. خوف دائم من أن يحدث ما يعوقني عن رؤيته.

أحب رائحة التبغ في شعره وثيابه وأصابعه. طريقته البطيئة في الكلام. لا أستطيع السير قربه دون أن أمسك بذراعه أو بيده.

ليضحكني، كان يدفعني بعيداً ويقول: «ما بك، ابتعدي عني قليلاً، دعيني أتنفّس، سيظن الناس أنني أعرفك».

وجودنا مع أصدقائه لا يلهيني عنه. يخجل حين أقبّله أو أعانقه بحضور الآخرين، كأنني صرت أخرى. أين هي تلك الفتاة الخجولة؟

مساء يوصلني قريباً من البيت. أتعلّق به. أعانقه غير آبهة لا للجيران ولا لأحد. كأن العالم ما عاد موجوداً.

أذكر مرة حاولت أمي أن تستبقيني صباحاً إذ جاءت عمتي تزورنا. قلت إن لدي دروساً لا أستطيع التأخر. قالت عمتي «أي جامعة تبدأ فيها الدروس في هذا الوقت المبكر؟» جملة سأظلّ أكرهها بسببها.

كانت مواعيدنا المبكرة تضحك رفاق إبراهيم. يقولون إنني أقتل هذا المسكين الذي يسهر معهم حتى ساعة متأخرة ثم أوقظه أنا من عزّ نومه الصباحي.

الذهاب إلى إبراهيم كان صعباً دائماً. أحاول أن أخفي حرجي. حتى حين نصبح وحدنا في غرفته يستمر ذلك الألم يعصر معدتي. لا أقول له كم يتعبني المجيء. عندما أتصل به في البيت، تردّ عليّ بالإجمال أمه أو إحدى أخواته. أتلعثم. أذكر اسمي وأسكت. تقول بجفاء «سأوقظه» كأنها تريد أن تفهمني بأنني أحرمه من النوم والراحة. باستثناء ذلك كنت لا أهتم أين نلتقي.

عندما تزوجنا عشنا لأكثر من سنة في شقة وسط حي مكتظ. على بُعد أمتار منا سوق خضار كبير. الشقة في بناية من خمسة طوابق.

في كل منها شقتان. أما الشقة التي سكناها فتقع عند الطابق الأخير. أمامها يمتد السطح الذي تتوزّع فوقه خزانات الماء والهوائيات وبعض أثاث مخلع. البيت مؤلف من غرفة جلوس مفصولة بباب جرار عن غرفة النوم. على أحد جدرانها بقع متفرقة من العفن خلّفتها الرطوبة. الشباك غطيناه بشرشف أبيض يحجبنا عن الأعين. ليس هناك خزان للماء الساخن. لا يذكر إبراهيم بيتنا هذا حين نحكي عن تلك الأيام. يقول إن بيتنا الوحيد هو الذي نسكنه الآن، على عكسه أحسّ بالحنين إلى ذلك المكان.

أذكر كيف نلجأ إلى السرير لندفأ في الليالي الباردة. نتعانق متلاصقين كي لا نحس بالرطوبة وبالماء يرشح من فواصل الشباك غير المُحكَمَة.

رغم صغر مساحته كان يجتمع فيه عشرات من رفاقنا. لا أدري كيف كان يتسع لنا. بعضنا يجلس على الأرض تماماً أو يفتح الباب الجرار، يتحول السرير أيضاً إلى كنبة إضافية نجلس عليها. رغم بُعد الجامعة، أذهب إليها سيراً توفيراً لأجرة السيارة. ما إن نتجاوز بدايات الشهر حتى يقلّ المال. نعيش كأننا عائلة كبيرة. من يتوفر لديه بعض المال يصرفه على الجميع. وإن أفلسنا نذهب عند أم جورج التي تستقبلنا في أي ساعة ومهما كانت الظروف.

عندما تلحظ أمي في زيارتها ما ينقص لدينا لا تسألني. تأتي في المرة التالية تحمل بعض ما عندها من صحون أو طناجر أو تحمل أغطية صوف علني أشفى من زكامي الطويل.

عندما صحا الطقس نظفنا الفسحة الممتدة أمام بابنا، أبعدنا حطام الأثاث إلى زاوية بعيدة، فرشنا حصيراً. ليلاً نسهر في العراء نشرب خالطين بين نجوم السماء والتماع الرصاص. رغم ضيق البيت

كان هناك من يبقى لينام عندنا، خصوصاً حين يصحو الطقس. يتمددون فوق الحصير. صباحاً توقظهم أشعة الشمس فوق رموشهم. يفتحون أعينهم غير دارين أين هم.

السطح تحول إلى ما يشبه المقهى. دائماً هناك وجوه جديدة. يأتون غالباً برفقة عدنان. كل واحد يحضر معه غرضاً. قنينة بيرة، فحم، سجائر، ربطة خبز، حبّة شنكليش، علبة سردين... نعدّ وليمتنا مما تيسّر. أحياناً يشتكي الجيران من الضجة فنلزم الهدوء لليلة أو اثنتين ثم نعاود صخبنا. نستمع إلى الأغاني على مسجلة قديمة. لا فرق بين أم كلثوم وفيروز والشيخ إمام والبيتلز، يخرج الصوت فيها واحداً خشناً ممطوطاً.

لم أرد أن نغادر بيروت بعد الاجتياح، لكنني لم أقل شيئاً حين سألني إبراهيم رأيي. فكرت حينها لا ببيتنا وأصدقائنا فقط بل بأمي وأختي. منذ شهور ويارا لم تقبض أياً من رواتبها المتأخرة. أراهما تكتفيان بالقليل، عندما سألت يارا، قالت إن لديهما مدخرات، فهل نسيت؟

في الجنوب، لم يزل عني الشعور بالضيق إلا عندما صار لنا بيت. بيت وسط الضيعة العتيقة كما يسميها أبناء المنطقة. حوله حقول. نصل إليه عبر درب ضيقة، على جوانبها تتوزع بيوت بسيطة وبساتين وكروم. بين جلولها يسرح الدجاج، ينقر التراب ويبقبق.

في الصباحات أستكشف ما حولنا. أمشي لا أعرف إلى أين يفضي بي الطريق. أمرّ بحقول الزيتون. أرى عائلات تتسلق الأغصان، تهزّها برفق. تحتها تتسارع الأيدي تنقي الحبات التي تلمع فوق شرشف أبيض، يتجمعون لاحقاً يأكلون أرغفة تفوح منها روائح النعناع والزعتر واللبنة. ظهراً يأكلون طبخاً، غالباً ما يكون لوبياء أو فاصوليا بزيت أو مجدرة. بعضهم يقطع الباذنجان يأكله نيئاً مع الخبز والملح، أحني رأسي في عبوري قربهم، لا أقول شيئاً فأنا لا أعرفهم. أسمعهم يغنون أو يتسمعون إلى الراديو عند كعب الشجرة. عندما أمرّ يتوقف بعضهم عما يفعل. تتبعني عيناه حتى أختفي. ثم صرت أقول لهم «مرحباً» يجيبون «تفضلي» خصوصاً إن

كانوا جالسين للطعام. يسألون بعضهم عني بصوت أسمعه. يشيرون إليّ بـ «البيارتة... أو زوجة المهندس، ثم يدلّون بعضهم على بيتنا.

لا أعود إلى البيت إلا حين أتعبِ. كل يوم أكتشف مكاناً جديداً. الدروب الترابية توصلني إلى بيوت متداعية لا يسكنها أحد. يرتاح فيها الرعاة أحياناً. بعيداً عنها جلول خضراء تمتلئ بالخضار. أراهنّ يقطفن البندورة يبحثنَ عن خيارات قليلة تبقت بعد أن يبست الشتول. لكن النهار يبقى طويلاً، إبراهيم لا يعود إلا مساءً. يسألني ناصر لماذا لا أتدرج في مكتب محاماة هنا في صيدا. لدى خالته معارف، تستطيع أن تتدبر لي مكتباً جيداً. أتردد إذ كيف أعمل في مكان لا أعرف فيه أي شخص. إبراهيم أيضاً لم تعجبه الفكرة. قال إن باله سينشغل كلما حصلت عملية ضد الإسرائيليين.

عندما انتهى موسم الزيتون، قلّ من أراهم خلال سيري. هناك من يجمع البزاق بعد الأمطار الأولى أو من يبحث بين الأعشاب التي يبست عن بقلة برية أو خبيزة. البرد شديد ناحيتنا لأن القرية مكشوفة للريح من جهاتها الأربع. الناس جهتنا يختلفون عن الجهة الأخرى حيث الشوارع العريضة والمحلات الكبيرة والمستشفيات.

مع الوقت ما عاد مروري خفياً. ألفني الناس. يبتسمون لي ويصرّون على دعوتي لأشاركهم فنجان قهوة. دعوات تخجلني وتدفعني لتكرار «شكراً شكراً» بشكل أخرق. لكن نزهاتي في تلك الدروب لن تطول.

أذكر أنني كنت في تلك الدروب الداخلية عندما سمعت صوتاً مزلزلاً. رفعت رأسي رأيت سيارتين عسكريتين ينبعث منهما وحولهما دخان كثيف، يتصاعد في الجو فتتبعه غيمة أخرى أشد قتامة وكثافة. لأول مرة أصاب بمثل هذا الهلع. في الفلاة أصوات

الانفجارات أعنف. في دقائق قليلة جاءت ملالة، صوبت مدفعها وأسلحتها تمشط بشكل دائري كل ما يقع حولها وأمامها. أنا التي عشت حرباً واجتياحاً لم يسبق لي أن خفت بهذا المقدار. أقف في العراء، لا شيء حولي أحتمي به، لا شجر، لا بيت قريب. إن احتميت بالاستلقاء في الجلول قد يرونني. حين يهلعون من عادتهم أن يطلقوا النار على كل ما يتحرك حتى الكلاب والقطط. سبق لإبراهيم أن وصف تلك الهيستيريا. صوت الملالة يقترب ما عدت أراها أعلى التلة. لا بد وصلت إلى المنحدر. لم أعِ كيف ركضت. فكرت أنني إنْ لم أرهم فهم أيضاً لا يرونني. تفكير لم أعرف لحظتها أنه غير صحيح. لم أدرِ كم من الوقت مضى على ركضي قبل أن أرى بيتاً صغيراً، تداعت حجارة تصوينته. المصطبة في الجهة الخلفية مليئة بأعشاب طويلة كأنها أشجار، نباتات برية طلعت من شقوق الباطون.

البيت بلا نوافذ، في داخله يطنّ النحل والذباب. رغم ذلك دخلت، قرفصت لصق الجدار. حولي براز يابس، رائحة حيوان نافق، قناني مكسورة، صناديق مخلعة. حتى بعد أن اختفى صوت الرصاص وغابت كل حركة حولي، لم أجرؤ على النهوض. عدت إلى البيت بخطى بطيئة وظهر منحنٍ. لم أنتبه للدموع تكرج من تلقائها وتغشى عيني.

لم أخبر إبراهيم يومها، ولم أعرف لماذا لم أخبره لاحقاً لكن الكلام عن التجربة هذه بدا حينها مستحيلاً، صرتُ عندما أسير لا أبتعد. ألتفت خلفي لأتأكد من أنني لا أزال أرى قِبّة الكنيسة.

في موسم الأمطار الشديدة أصبت بآلام في مفاصل ساقي فتعذّر علي الخروج كالسابق. صرتُ أكتفي بالجلوس عند العتبة والباب

مفتوح. أنظر ساعات إلى الماء يكرج في الجلول بصوت رتيب منتظم ينيمني فوق الكرسي. كأنني هنا أكبر كل يوم سنة.

يداوم ناصر على سؤالي «كيف لا تضجرين؟ لو عاشت سيما هنا يوماً ستنفجر من الملل» لا ينادي زوجته باسمها أي سعدى، تكره اسمها الذي أُطلق عليها إرضاء لجدتها. حين يريد إبراهيم مشاكستها يناديها سعدى.

ذهبت برفقة ناصر وإبراهيم إلى المركز الثقافي الفرنسي. كانت المرة الأولى التي أرى فيها شوارع المدينة أو بالأحرى الشارع الرئيسي فيها. يقع المركز في الطبقة الثانية من بناية ضخمة. أصادف فيه تلاميذ. بعضهم يملأ طلبات للجامعات. يسألون الموظفة بين الحين والآخر عن معلومة أو عن عبارة في الاستمارات. قلة من يجلسون إلى الطاولات يتصفحون مجلات أو كتباً دون قراءتها.

بيتنا في الكويت هو الوحيد الذي وجدته غريباً. كلما طال مكوثنا فيه زاد نفوري منه. ربما لأنه اختير لنا. قد يكون السبب الذي لا يشبهنا لم أدر لكنني أحسست دائماً فيه بأنني في فندق. المجمّع كبير جداً. كثيرون ممن يعملون مع إبراهيم يسكنون قريباً منا. لذلك وجدوا أن تعارف عائلاتهم وتزاورها أمر طبيعي أيضاً.

هناك عمال هنود يأتون كل يوم صباحاً لتنظيف الشقق. صرت أصرف العامل الهندي ما إن يأتي صباحاً. يربكه الأمر. يبقى واقفاً لوقت طويل أمام باب الشقة المغلق. قال إبراهيم إنني أعرّضه للطرد. سيظنون أنه فعل أمراً مريباً لأمنعه من التنظيف.

لم تألف عيناي أبداً لا الأثاث ولا قطع الزينة التي ملأت الغرف وجدرانها. لوحات فاقعة الألوان لأشجار نخيل أو أحصنة وسط واحات، تماثيل ضخمة تتوزع في الزوايا وتضيق المساحة. الشقق

الأخرى كانت مفروشة بطريقة مشابهة. ذات يوم جمعت بعض الزوائد ووضعتها في غرفة أسميناها المستودع وأقفلناها بالمفتاح.

من تلك الفترة أذكر انتظاري الطويل لإبراهيم. زيارات الجيران الطويلة. وقت كثير لا أحد منا يعمل أو يخرج تقريباً. أذكر الرسائل التي تبادلتها مع يارا أختي. أشياء كثيرة عرفتها عنها. حين تكتب لي تتخفف بعض الشيء من حذرها. كتبت عن ذكريات تتعلق بوالدي. تقول إنها في صغرها كانت لا تمانع من قضاء نهار عطلة برفقته في الصيدلية. لا يدري كيف يسليها لذلك يحكي لها عن الأدوية، المواد التي تصنع منها، دقة المقادير، أماكن تصنيعها. لا يهمها أنها لا تفهم لكنها تستمع إليه بفرح. يشير إلى الأدوية فوق الرفوف، يذكر أسماءها. يجعلها تعيد حتى تتمكن من لفظها أخيراً بشكل صحيح، كما يحفظها سبب استخدامه. ثم في زيارة لاحقة يختبر ذاكرتها ومقدار ما حفظت. لذلك تعيد في نفسها تلك الأسماء الغريبة مراراً وتكراراً حتى لا تخذله في زيارتها التالية له. أيام الأحد كان يصطحبها إلى الكنيسة. أمي لا تذهب معهما. لا تدخل الكنيسة إلا في مناسبات كالزواج والمآتم وأحياناً في الأعياد. بعد القداس يصحبها إلى محلّ للحلويات، تجول عيناها على واجهة البراد الزجاجية. تشير بإصبعها إلى القطعة التي تريدها. هو يطلب الشيء نفسه في كل مرة: فنجان شاي وحبة شوكولا لا يأكلها. يحتفظ بها ليفاجئها لاحقاً. رغم أنها حفظت لعبته، كانت تظهر مفاجأتها في كل مرة. أو يأخذها إلى محل سندويشات. يشتري لها سندويش دجاج مشوي. يتفرّج عليها ضاحكاً وهي تأكله بنهم. كانت أمي تستاء من ذلك، تقول إنه أفسد غداءها وأطعمها أشياء بلا فائدة.

مرات تخبرني عن أمي، عن سمعها الذي بدأ يخف، عن فوضى التعليم في مدرستها. أذكر الرسالة التي حكت فيها عن سيمون أول مرة. قالت إنها بعد كل هدوء، يسود لفترة، تفكر بأنه سيعود. حتى لو علمت في أعماقها أنه لو عاد فلن تراه وعلى الأرجح لن تعلم بعودته. تقول إنها في أحلامها تعاتبه. ألا يحق لها باسم السنوات التي أحبّته خلالها وانتظرته أن تسمع منه كلمة. حتى لو قال إنه لم يعد يحبها عليه أن يخبرها. لا أن يسكت ويتركها معلقة بماض لا تعرف كيف تغادره. تقول إنها في دار المعلمين أحبت رفيقاً لها. لكنها عندما أحبت سيمون علمت أنه شعور جديد ومختلف. تتعبها أحلامها التي تراه فيها عائداً، يلتقيها ولا يعرفها أو لا يلتفت نحوها، أذكر أنني كتبت لها أيضاً عن الحياة في الكويت.

عندما يعود إبراهيم، يكون متعباً. لا ينطق بأية كلمة حتى بعد أن يستحم ويجلس قبالتي إلى طاولة الطعام. يشرب العصير رشفات صغيرة كأنه كأس ويسكي. شيئاً فشيئاً يستعيد بعض الهدوء. قد يحكي عن عمله وقد لا يفعل. يصرّ أن أخبره عن يومي. أحكي عن الكتب التي أقرأ فيها. أحياناً يبادر هو لسؤالي عما حل بشخصية أو بأخرى في الكتاب. يحصل أن أنسى الكتاب تماماً، أما هو فيظل يذكر الشخصيات بأسمائها ويقارن بين ما حصل معها من أحداث وبين ما نعيشه نحن في الواقع. قد نستعيد أشياء جرت معنا في بيروت أو نعاود سرد حادثة مضحكة عن أحد أصدقائنا. نضحك كأننا علمنا بها للتو. أحياناً أخبره عن مشواري إلى السوق الهندي الذي أحب التجوال فيه. أريه الهدايا التي أشتريها لأهلنا ولأصدقائنا. يستغرب أن أشغل نفسي بشراء هدايا وموعد عودتنا بعيد، لا أقول إنني أفعل ذلك كي أحسّ أن رحيلنا قريب.

اعتبر إبراهيم أنه محظوظ عندما حصل على عقد عمل في السعودية. هذه المرة، اعترضت على سفره، حكى عن الأطباء والمهندسين الذين يسافرون برواتب قليلة وبتقديمات أقلّ بكثير من التي أعطيت له. قال إنه تعب من هذا القلق الدائم، من العمل المضني دون طائل. كنا كغيرنا نجهد لتكفينا رواتبنا حتى منتصف الشهر. كل من حولنا يعيش بهاجس الدولار الذي يرتفع.

أذكر أكداس الثياب التي انشغلت بغسلها وكيّها، الجوارب التي أصلحتها، الأحذية التي لمّعتها. الحقيبة القديمة التي أنزلناها عن التتخيتة. العفن في بطانتها. قال إن يديه أقوى من يدي، قام بفركها بفرشاة خشنة. وضعناها في الشمس حتى خفت الرائحة ولم يبق من البقع إلا أثر خفيف. ظل من اللون الأخضر.

لم يرد أن أرافقه إلى المطار. أوصله فادي بسيارته. وقفت على الشرفة. أنظر إليه يضع الحقيبة في صندوق السيارة. التفت نحوي. أشار بيده أن أدخل إلى البيت. لم أستطع. كنت أحدّق بزجاج السيارة الخلفي. أرى يده تلوح ثم ما عدت أميّز إلا السيارة تبتعد ثم تنعطف وتختفي.

كم كان صعباً أن أدخل إلى البيت. أفكر بالسنة التي سيغيب فيها. منذ وفاة أخي لم أشعر بمثل هذا الألم.

أنظر إلى فنجان القهوة فوق الطاولة، إلى أعقاب السجائر، إلى

الكنبة التي يجلس عليها. فكرت كيف سأعيش. تمنيت لو ألحق به. هذه الفكرة رغم استحالتها آنذاك جعلتني أهدأ لوقت. كان يوم أحد من أواخر أيلول.

التلفون يرن مرات ومرات. لا أقوم عن الكنبة. تقوقعت على نفسي. ربما غفوت. لم أنهض إلا عندما انسحب الضوء من حولي. جلست أكتب له. الكتابة صارت عادة. أحكي معه في أي وقت من النهار أو الليل. أكتب له في كل الأمكنة التي أكون فيها.

ليلتها لم أتمكّن من المكوث في بيتنا. استغربت أمي قدومي. يارا أبدت فرحة كبيرة. حاولت أن تحتفل بنومي عندهم بأن تحضر لي طعاماً أحبه. لكنني اكتفيت بالتدخين وشرب الماء. في أواسط الليل صار الهواء ناعماً. جلسنا على الشرفة. الضجيج خفّ بعد أن أطفئت معظم المولدات. القمر كان بدراً. أضاء الطريق المعتمة. نلمح بعض السكارى المترنّحين. أحدهم يسقط جنب الطريق. يلزمه وقت ليقف على قدميه. في صغري أكثر من يخيفني بينهم العجائز. رؤية عجوز سكران محزنة. لا أعلم لماذا. كأن كل الهشاشة تجتمع في هيئته. أذكر رائحة العرق تفوح ما إن أمرّ بالزاروب. لاحقاً أستغني عن المرور به. آخذ طريقاً أطول. تقول يارا إن عددهم زاد. كثيراً ما ترى بعضهم صباحاً عندما تذهب إلى عملها مستغرقاً في النوم على الرصيف المحاذي للحديقة العامة. يشخر كأنّه في سريره.

فيما بعد يصير العمل ملاذاً يبعدني عما يجول في رأسي.

كنت قد أنهيت فترة التدرج وبات عملي مختلفاً. أذكر أول مرة قابلت فيها المحامي طلال صاحب المكتب.

أطلع الأدراج على مهل بانتظار أن يخف توتري. كنت أحس أن حلقي جاف يستحيل علي أن أنطق بكلمة. ماذا يحصل لو أعود

أدراجي فكرت. لكن ماذا أقول لرمزي الذي طلب من أبيه أن يكلم المحامي من أجلي؟ أأقول إنني خفت وتراجعت. أنظر إلى الساعة كلما صعدت درجة. بكّرت في قدومي قد لا أجده. ثم ماذا لو كانوا كثيرين. كيف أعرف من هو طلال عيد؟

أنظر إلى اللافتة عند الباب طويلاً قبل أن أقرع الجرس. فتاة تفتح الباب. لا تسألني شيئاً، تقول «تفضلي» مشيرة إلى كراسٍ متلاصقة جنب مكتب صغير. تتوارى لوقت قبل أن تعود. أشعر كأنني في عيادة طبيب نسائي. الرهبة نفسها. تمنيت أيضاً أن تقول «أستاذ طلال اضطر للتغيب» لكنها لم تفعل. كانت ترد على التلفون. تحكي بصوت خافت. تكبت ضحكات صغيرة، أسمع بعض حديثها رغماً عني. يفتح باب داخلي، بعد قليل يخرج منه ثلاثة رجال.

عندما أدخل ألاحظ غرفاً أخرى داخلية لكنها خاوية، فيها مكاتب وكراسٍ لكن لا أحد. وقف لمصافحتي ما إن تخطيت الباب. لم أتوقع رؤية رجل عجوز هكذا. مربوع القامة، يميل إلى البدانة. أمامه أكداس من الملفات والأوراق في حالة فوضى، المقابلة دامت على الأكثر عشر دقائق لكنها بدت دهراً بالنسبة إلي. لم يكن مدعياً كما ظننت. ما قاله هيّأني لاحقاً للصعوبات التي سوف أواجهها.

في بداية تدرجي، كان عملي شبيهاً بعمل سكرتيرة. لا أوكل فقط بالملفات وتنظيمها وبإيجاد معلومات محددة من كتب القانون وملفات القضايا القديمة وتصوير المستندات والأوراق، بل عليّ القيام بعمل المحامين في المحاكم وحضور الجلسات، وتقديم اللوائح وطلب أوراق من الدوائر الرسمية.

إضافة إليّ كان هناك متدرجان آخران ومحاميان اثنان. أحدهما

هو أحمد، إبن طلال. المتدرجان يسخران من الابن. يقولان إنه أمضى عشر سنوات ليتخرج من كلية الحقوق. لولا والده ومعارفه لما نجح. يقلّدان مشيته المتفاخرة، طريقته في حمل الحقيبة والدخول دون إلقاء التحية على أحد. في الواقع كنت أجد أنهما يظلمانه. عملت معه عن قرب. بدا منذ الأسبوع الأول خجولاً، عديم الثقة بنفسه. يرتبك في حضور والده كأنه يخشى دائماً أن يكون قد أخطأ في إجراء أو عقد. على عكسنا يكلمه والده بلهجة حازمة.

كنت أحب الابن أكثر من الأب، ليس لأن معظم عملي كان معه بل لأنني مع مرور السنوات، انتبهت لاختلافه عمن حولنا بالتعامل مع الزبائن. لا يعني أنه لا يهتم بالمال. لكنه الوحيد الذي يقبل قضايا بدافع التعاطف والشفقة. لا هم حينها إن كان الزبون معدماً. كان ذلك مثار خلاف بينه وبين والده الذي يقول إن مثل أولئك الزبائن يتسببون بسمعة سيئة للمكتب. وسوف يجلبون أمثالهم إلينا ما يُهرِّب الزبائن المحترمين كما يسميهم الأب.

بعد وفاة طلال بقليل، أنهيت تدرجي ثم نجحت في الامتحان وصرت محامية في الاستئناف. القضايا تمحورت في تلك الفترة حول البيوت والعقارات التي تم وضع اليد عليها بالقوة. أو الإخلاءات التي حصلت بفعل السلاح. كانت القضايا هذه كثيرة تُقدَّم فقط لحفظ الحقّ لاحقاً. إذ لا مجال للبتّ فيها. تُرجأ سنين قبل أن يعاد النظر فيها ووضع أحكامها موضع التنفيذ. كنت أحس أن عملنا عبثي. كل شيء مؤجّل إلى أمد لا نعرفه. عدا ذلك أكتب عقود بيع وشراء وإيجار، معاملات حصر الإرث وغيرها. نكتبها دون تفكير. تتكرر على نحو دائم وممل.

رغم ذلك شغلت نفسي فيها. كان اجتهادي أكثر مما تستحقه القضايا. أجهدت معي متدرجة اسمها مايا. كانت تدخل مكتبي كل يوم بوجه مذعور. تمكث واقفة حتى أطلب منها أن تجلس. مهما أفعل لا يتبدد ارتباكها. عندما أسألها عن أحوالها وأخبارها، أفشل أيضاً في استدراجها إلى حديث غير مهني. تقول: «الحمد لله» وتسكت دون أية كلمة إضافية. متدرجة ثانية طويلة اللسان، قالت إن والد مايا يعمل ناطوراً ولديها سبعة أخوة. في مرة ثانية قالت إنه كندرجي.

كل متدرج يختار أن يكون تابعاً لمحامٍ في المكتب دون أن يُطلب منه، يكيدون ويُخطئون بعضهم، يجهدون في إظهار قدراتهم. لكن لا أحد من المحامين يعير تلك الأقاويل أهمية. اعتادوا على أن ذلك جزء مما يشغل المتدرجين.

على غير عادتها صارت يارا تزورني في المكتب. عندما ينتهي دوامها المدرسي تمرّ بي قبل أن تبدأ عملها الثاني. ككل الناس عملت يارا بوظيفتين. رغم ذلك فمجموع ما تتقاضاه لا يتجاوز الثلاثين دولاراً. لكنها فرحة بوظيفتها الثانية. تقول إنها تتعرف على الكثير من الناس.

- هم يدفعون وأنت تقبضين، تضعين المال في الصندوق وانتهى الأمر، هل هذا تعارف؟

- بلى مع الوقت أميّز طبائع الناس. أحب بعضهم. مشترياتهم تدل على أذواقهم أيضاً.

- مشترياتهم تدل على مقدار ما في جيوبهم من نقود. أنت تخترعين أوهاماً. كل ما في الأمر أنك تضجرين في البيت بعد الظهر.

بعد جلوسها بقليل، تسحب السندويشات من حقيبة يدها. عندما أرفض تقول إن أمي ستزعل كثيراً إذا لم آكل. كأنني في غياب إبراهيم عدت صغيرة. الفرق أنهما اليوم تتحايلان عليّ لآكل الزوّادة. تعدّ أمي سندويشات فيها ما تطبخه: مجدرة وخضار، بطاطا وبيض مسلوق، لوبياء بزيت وفليفلة حلوة، عجة بيض وكوسى.

أحياناً تكون هذه السندويشات هي الوجبة الوحيدة لي أثناء النهار. لا أجوع عندما أكون وحدي. يخطر لي أن أشرب كأساً ما، أن أدخّن. أفعل ذلك بينما أقرأ أو أكتب لإبراهيم. هذا حين أكون وحيدة في بيتنا. كان لديّ عادة أيضاً هي قراءتي اليومية لآخر رسالة من إبراهيم حتى يصلني غيرها. صحيح أنني أكون حفظتها لكن القيام بذلك يشعرني بالأمان.

حاولت أن أكتفي بما أجنيه كل شهر. صرت أشتري أنواعاً رخيصة جداً من المشروبات. لا يهمّني أن يقال عنها مغشوشة. كذلك أبدّل نوع السجائر حسب أسعارها. الأرخص هو الأفضل دائماً. الكل حولي كان يفعل مثلي. أوضاعنا متشابهة.

منذ بدء الأزمة، تقبل مي مساعدة جورج الذي يرسل لها كل شهر خمسين دولاراً. عملها شبه متوقف تقول. عدنان تعاقد مع مدرسة خاصة يعلّم فيها بداوم كامل. يقول إن ذلك غير قانوني وينافي شروط التفرّغ في الجامعة، لكن ماذا يفعل وكيف يدفع أقساط أولاده؟

القضايا أيضاً قلّت بشكل ملحوظ. كان يحلو لأحمد أن يقول: على الأقل أحلّت الأزمة الوئام والمحبة بين الناس.

في الشهرين الأولين، اقتصرت رسائل إبراهيم على وصف لعمله

ولشقته التي يتقاسمها مع مهندس كوري الجنسية. في عيد الفطر، وصف خواء المجمّع، الصمت حوله، سفر الجميع في العطلة. قال إنه يحسدني، على الأقل أرى وجوهاً أحبها ومحاطة بأشياء ألفتها.

بعد سفره لم أبدل شرشف سريرنا حتى زالت رائحة إبراهيم بالكامل. كثيراً ما أفتح الخزانة. أتلمّس ثيابه الشتوية فيها، رائحة تبغ قوية تفوح منها، في جيوبه أجد أوراقاً كثيرة، فواتير، أرقام تلفونات، أسماء، لوائح مشتريات، قداحات فارغة، بطاقة قديمة لعضوية في نادي السينما. أشياء تبكيني لشدة ما أفتقده.

في رسائلي، أصف له مشاوير وسهرات. لا يهمّ أن يكون المشوار إلى مكان بائس ولا أن تكون السهرة مملة.

أكتب عن حياة ليست حياتي فعلاً لكنه يفرح بأن يقرأ عنها.

في غياب إبراهيم تعرّفت على الناس حولي من جديد. أراهم وحدي لأول مرة. أكتشف فيهم جوانب ما كنت أحس بوجودها. كانت مي بالنسبة إلي امرأة قوية. ما تفعله يصدمني. ما تسميه صراحة أجده عدم مراعاة لشعور الآخرين أو تدخّلاً في حياتهم.

رأيي أتقاسمه مع عدنان دون أن نبوح به. نتبادل نظرات عندما نسمعها تقول لفادي مثلاً إنه ضعيف. لا يجيد الدفاع عن حقوقه. وإلا كيف يتركهم يركبون على كتفيه في العمل. أو تقول لي عندما أكون مشغولة بإعداد الطعام خلال عشاء في بيتنا إنني أدلّل إبراهيم، أدعه يجلس كالملك أو كهارون الرشيد. ما الذي ينقص حضرته ليساعدني؟ على خلافي يضحك إبراهيم من تعليقاتها. يجدها طريفة وجريئة. اعتدت أن أحتفظ بآرائي لنفسي.

بعد أيام من سفر إبراهيم جاءت مي عند العصر. أعلم بحضورها قبل أن أفتح الباب. هي الوحيدة التي ترنّ الجرس دون توقف. كأن لا صبر لديها للوقوف والانتظار. كنت أرتدي البيجامة، شعري مبعثر، شبه نائمة. غلبني النعاس وأنا مستلقية على الكنبة. لم تسأل كيف حالك. لا شيء مع أنها المرة الأولى التي أراها بعد سفر إبراهيم «بسرعة البسي ثيابك، ما بك جامدة، سوف نتأخر». كان كلامها كالتنويم المغناطيسي نفّذته دون اعتراض ولحقت بها دون أن أدري إلى أين. وصلنا إلى حي هادئ لم يسبق أن مررت به. صعدنا

إلى بناية قديمة، لون أباجورها أصفر.

دائماً أمرّ بالشارع لكنها المرة الأولى التي أرى فيها الحي. كأنه خارج الحرب. لا أثر لرصاص ولا لترميم لا في الجدران الخارجية ولا داخل المباني. المكان فيه غرفتان، الأولى أشبه بمدخل واسع، الثانية كبيرة. على جدارها قماشة بيضاء عريضة. الكل التفتوا لحظة دخولنا، كانوا لا يتجاوزون العشرين. كأنهم كانوا بانتظارنا، إذ أعتمت الغرفة لحظة جلسنا وبدأ عرض الفيلم. أذكر أنه كان لمخرج سويدي. فيما بعد سوف نشاهد كل أفلامه. المناقشة التي أعقبت الفيلم أضجرتني. أردت أن تستمرّ صور الفيلم في رأسي دون أن يفسدها ضجيج الأصوات. عندما خرجنا قالت مي: «أف كم يتكلمون» سألتها إن كان حضور المناقشة إلزامي.

- لا، لكن ظننتك تحبين سماع الآراء.

- ما الذي أوحى لك بذلك. لم أرَ في الفيلم شيئاً مما قالوه.

تضحك. تقول إنني غبية لأنني سكت ولم أطلب منها الانصراف.

«ماذا نفعل الآن؟» سألتني بينما تدخل في زاروب ضيق. لم أجب. ما فكرت فيه هو العودة إلى البيت والكتابة لإبراهيم. هي أيضاً سكتت. أكملت سيرها ثم قالت: «وصلنا. تعالي. لن نطيل المكوث». حتى الآن لا أدري سرّ انقيادي لها. دخلنا بيتاً يعج بضيوف وأقارب. صدمني الحشد. اقتادتني مي من يدي إلى غرفة ثانية، غرفة نوم. وافتنا إليها صديقتها بعد حين. أذكر أن الزيارة طالت ولم تنته إلا حين وقفت.

حين أوصلتني أقفلت السيارة. رافقتني إلى البيت. أعددنا معاً عشاءً بسيطاً أساسه علبة طون، أضفنا إليها ما وجدناه من خضار.

شربنا ما تبقى من قنينة ويسكي. أضفنا الكثير من الثلج لكي يطول شربنا. لم تنم ليلتها عندي. لكنها صارت تفعل في المرات التالية. أحياناً تتصل بعدنان أو بأي من أصدقائنا ليسهر معنا.

في البداية كان عدنان أكثر من يسهر معنا، ثم فادي. لكن النوم القليل كان يشتتني في العمل. خسرت وزناً كثيراً في أقل من أسبوعين. عندما رأتني أمي، رجتني أن أنام عندهم بضعة أيام، ما معنى أن أعيش وحدي في شقة فارغة.

كانت مي تكثر من الشرب. ليس هناك وقت تتوقف فيه إلا حين تنام. تغيّر شكلها. هالات سوداء تحت عينيها. شفتاها جافتان لا لون فيهما. تسعل سعالاً جافاً. كآبتها كانت واضحة. اعتدت عليها مختلفة. لأنني أراها وحدي؟ لكن حتى عدنان صار رقيقاً معها. يتكلمان همساً. أشغل نفسي عن حديثهما. أغرق في أفكاري التي تأخذني دائماً إلى إبراهيم.

مرة جاءت مي إلى مكتبي والساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً. ما إن جلست حتى بدأت ببكاء مرّ. قالت: لا أعرف ماذا أفعل. الجملة الوحيدة التي قالتها. إنها المرة الأولى التي أراها تبكي. تركت عملي. أحضرت لها ماء. لم تشرب. أمسكتها بيدها كأنها طفلة وخرجنا. خطواتها كانت ثقيلة كأنها تحمل جبلاً فوق ظهرها. في البيت تقوقعت عند طرف الكنبة. كانت تبكي ولا أستطيع شيئاً. خفت. ماذا أفعل؟ لم أجد عدنان.

الآخرون صلتها بهم ليست حميمة. تمنيت أن تنام قليلاً. لاحقاً ستخبرني عن علاقتها برجل مطلّق لديه ثلاثة أولاد. علاقتها به بدأت عابرة. اشترى من محلها هدية زواج لأحد معارفه. عاد ثانية بحجة هدية أخرى. فكّرت: ما الضرر في علاقة عابرة؟ ثم وجدت

نفسها واقعة في غرامه. يتفقان على لقاء. لا يأتي، لا يتصل. عندما تعاتبه يتذرع بأعماله أو بأولاده. يلتقيان فتحسّه كالزئبق يفلت من بين أصابعها. أطول لقاء بينهما يدوم نصف ساعة. تقول إنها صارت مهووسة به، لا شيء في تفكيرها إلا هو. تجرّب استدراجه لتسمع كلمة رقيقة. أو تتكبر عليه، تمتنع عن رؤيته لفترة، لكن ذلك لا يغيره. عندما واجهته قائلة إنها لا تعني له شيئاً، أجابها: «أكيد أنت مهمة بالنسبة إلي». تكرر جملته ساخرة: «أكيد أنا مهمة كما سيارته لا أكثر».

ما يشعرها بالقهر والإهانة أنها تعجز عن فعل ما عزمت عليه. كأنها بلا عقل. تحسّ معه بأنها ذليلة مهانة.

أحاول أن أقوي عزيمتها. لكن ما إن يتصل بها ليلتقيها حتى تتبدل كلياً. تروح تتهيأ للقائها به. تشتري ثياباً جديدة. تعجز عن النوم كأن يقظتها ستعجل حلول الموعد. تعلو ضحكاتها. لكن ذلك لا يدوم، طارئ يؤجل لقاءهما. أحياناً لا يأتي ولا يعتذر. تستمر في انتظاره ساعات قبل أن يستولي عليها الغضب. حين تراه، تخاف أن تبوح له بمدى شوقها وبعذاب انتظاره. تقول: «ليس ممكناً أن أخبره ذلك لا لأنني قوية بل لأنه حين يغادر السرير ينتهي لقاؤنا». كل شيء يثير حزنها. أنظر إليها متسائلة منذ متى كانت عاطفية. صور الحروب، الأطفال، العجائز، الطبيعة، أتفه الأفلام، أي قصة تسمعها، كلها تذكرها به. كانت تتحمل ما تعانيه بصعوبة بالغة. لا يمكن أن تبقى وحدها. حتى محلّها لا تطيق المكوث فيه.

أحياناً تطلب مني مرافقتها لتمرّ قرب البناية التي يقع مكتبه فيها. إن كنا متأخرين والأنوار مضاءة في المكتب تقول: «ما الذي يؤخره حتى هذا الوقت؟ أكيد هو برفقة امرأة ما». حين يكون المكتب

معتماً تفكر أنه ليس مشغولاً بأعماله، الله وحده يعلم مع أي امرأة هو.

عدنان نصحها باستشارة طبيب. هو أستاذ معه في الجامعة وسيراعيها. لن يأخذ منها مالاً كثيراً. أنا أيضاً أحثّها على قطع علاقتها به. تؤجّل الذهاب عند الطبيب. كأنها تنتظر أعجوبة في علاقتها. تتهرب من الطبيب بحجج كالقول إنها لا تحب إشراك الغرباء في حياتها الحميمة أو إنها لا تريد تناول الأدوية أو أن الطبيب ليس سحراً شافياً. كان لاقتناعها أخيراً راحة لي ولعدنان. لا لأنه ضاق بمكالماتها الهاتفية الطويلة بل لأن أشياء كثيرة في حياته كانت تؤرقه.

منذ بدأت زيارتها الأسبوعية للطبيب تغيرت أشياء في حياتنا كلنا. شيئاً فشيئاً كانت تتقبل نصائحه وتقوم بالخطوات التي يطلبها. نمشي أيام الصحو جهة البحر أو نخرج مع عدنان وعائلته في مشاوير صوب طرق جبلية. أحياناً تكون المناطق وعرة لا شجر فيها ولا نبات. نبحث عن أي شجرة مهما بدت سقيمة لنجلس تحتها. نأكل سندويشات أعددناها. الأولاد يخرجون دراجاتهم. يركبون عليها غير آبهين بالأرض الموحلة التي تغوص الدواليب فيها.

نوبات البكاء تباعدت. كانت تبدو شاحبة تتحرك كالمنوّمة. لكنها امتنعت عن ذكره أو عن المرور كالسابق قرب عمله. ما عادت سهراتنا كالسابق. نشرب أقلّ لأن مي تأخذ مهدئات. أنام عندها أكثر مما تنام عندي. نشاهد على الفيديو فيلماً تلو الآخر، الأفلام القديمة والجديدة، أفلام التشويق والكاراتيه.

كان عدنان يعيرني الكثير من الكتب. يقول إن مكتبة المدرسة التي يعلّم فيها أغنى من مكتبة الجامعة. هو أيضاً بدا متعباً تلك

السنة. بدأت بموت أمّه. أمه التي لم يعرفها فعلاً. نشأ منذ الخامسة دون أم. يذكر بكاءه، مطالبته بها كل يوم، شيئاً من ملامحها وشعرها الطويل. غير ذلك لا شيء سوى ما قيل له.

عندما تزوج والده ثانية عاملتهما زوجته هو وأخاه كولدين لها وعوّضت عليهما غياب أمهما. لم يكن يسمح لأحد في البيت أن يأتي على ذكر أمه فاطمة، حتى صورها وثيابها اختفت. ما سمعه هو من عائلة أبيه، من جدته وعماته.

كانوا لا يذكرون اسمها إلا مقروناً بأبشع الصفات. في صغره لا يفهم تماماً ما يقال. لكن لاحقاً فهم أن والده شك بسلوك أمه فاطمة. لذلك راح يراقبها. رأى بأم عينه، تقول عمته، خيانتها ومع من؟ مع شريكه. ماذا أتى يفعل بغياب رب البيت؟ أمر لا يحتمل الشك.

كان والده تاجر ماشية، شريكه من عائلته يمت له بقربى بعيدة. كبر عدنان وصورة واحدة ترسّخت في رأسه هي تلك التي رسمتها الأقاويل. يذكر أنه في سن العاشرة حاول أحد الجيران أن يستدرجه إلى بيته ليجتمع بأمه. عادت إليه صورة والده المهان، رفض. كذلك فعل بعد سنين في بيت رفيق له تعرف عائلته أمه. قاطع ذلك الرفيق منذ ذلك الحين. دائماً سعت لرؤيته. تهرّب منها. حتى أنها اتصلت بزوجة عدنان في عملها. ثم حين صار لديه أولاد كان يكرر دائماً: «ماذا تعني لي؟ أيكفي أنها أنجبتني لأسمح لها باقتحام حياتي. هي لم تبالِ بنا فلماذا أفعل أنا؟».

ثم ذات مرة، رأى عند بوابة الجامعة رجلاً عجوزاً يتقدم باتجاهه، بادره قائلاً: «أنتَ عدنان؟ أنا خالك». ثم أخبره بأنه لا يجوز أن تُدفن أمه دون أن يحضر أي من أولادها. «الرحمة على الميت واجب» قال.

كان خاله محدودباً بعض الشيء. يداه خشنتان فيهما شقوق كثيرة وسوداء. في فكه الأعلى سنان فقط مصفران. كلامه يخرج كالصفير، غير مفهوم. يقول عدنان إنها اللحظة الأصعب في حياته. لأول مرة يخجل هكذا، وتصغر نفسه بعينيه، «على من استقويت؟ على امرأة ضعيفة؟» يكرر.

لا يفهم كيف شخص بمثل أفكاره يتصرف على هذا النحو البدائي.

منذ موتها يسعى لمعرفتها. ذهب إلى الضيعة، تعرّف على من تبقى من عائلة أمه. اكتشف البؤس الذي عاشته، رأى القبو الذي كانت تنام فيه، لصق بيت أخيها. كانت تعمل في الحقول في مواسم الزيتون والقمح وقطف الفاكهة. ماذا سيعرف منهم عنها؟ ما قالوه لا يتعدّى الجملتين.

كنا نجتمع ثلاثتنا دون زوجة عدنان لأنها هي الأخرى تكرّس سهراتها لعمل إضافي هو الترجمة. تنتظر أن ينام الأولاد ليهدأ البيت وتعمل لساعات. في تلك الأثناء ترك عدنان عمله الحزبي وكثر كلامه عن رغبته بالهجرة. كلنا نحكي عن أمكنة مثالية نحلم بالهرب إليها. نقوم بخطط. نأتي بمنشورات من سفارات كأستراليا وكندا. نقرأ شروط الهجرة إليها. نسعى أحياناً لترجمة الأوراق اللازمة. لكن حماسنا يفتر بعد حين.

أذكر عودة إبراهيم من السعودية. في تلك الليلة لم أستطع النوم. أشياء كثيرة كان عليّ أن أنجزها قبل حلول الغد. أعاود ترتيبها في جدول زمني. تنظيف البيت. شراء الفاكهة والمشروب والورود. إعداد أكلات يحبها. خلال اليومين الماضيين كتبت لوائح. أشطب منها ما أنهيته. أضيف عليها أشياء نسيتها.

أتأكد من المنبّه. الساعة الرابعة فجراً؟ ليس وقتاً كافياً لفعل كل شيء. أضبطه على الثالثة، هكذا أنام مستريحة. أتقلّب. كل الأوضاع لا تستجلب النوم. ربما الجو حار. أفتح النافذة قليلاً. هواء بارد يدغدغ ذراعي ووجهي. أعاود إغلاق النافذة. علي أن أرتاح وإلا كيف سأقوى على إنجاز كل شيء قبل الثالثة بعد الظهر! ربما ضوء النواصة في الرواق هو السبب. أنهض لأطفئها. أنسى لماذا قمت. أضيء اللمبة. أنظر إلى جهته من الفراش. آخذ البيجامة عنها. أضعها في درفة ثيابه. من الجارور أسحب الهدية. أضعها في مكان ظاهر ليراها حين يفتح الخزانة. لففتها بورقة حمراء لامعة. اشتريت القداحة منذ شهرين، أردت مفاجأته بها. وصف لمعان ذهبها. أناقتها. دقة نقشها وعدم ضخامتها. الرنة الجميلة حين تفتح. منذ أعرفه مولع بالقداحات. أتخيّل فرحته وأبتسم.

الموسيقى لا تنيمني. عند الواحدة أقرر أن أنهض. هكذا بدأت بتنظيف البيت بحذر كي لا أوقظ الجيران. لم أخبر أحداً عن موعد

وصول الطائرة. قلت إن إبراهيم سيصل ليلاً. رفضت أن يوصلني أحد إلى المطار. أحببت أن أستقبله وحدي.

وصلت إلى المطار قبل موعد الطائرة بساعتين. كان الواصلون كأنهم يطلعون من تحت الأرض. يخرجون عبر ممر مستطيل ضيق يقف المستقبلون عند آخره. رغم علمي أن طائرته لم تصل، وجدت نفسي مدفوعة إلى الوقوف على رؤوس أصابعي لأتمكّن من الرؤية خلف رجال أطول وأعرض مني. ثم بدأت بدوري أدفع كل من يقف في دربي. أهمل تأمّل الوافدين بثياب شتوية ومعاطف. ينصبّ تركيزي على لابسي الثياب الصيفية. الحمالون يعيقون خروجهم. يلحقون بهم. يصرّون على حمل حقائبهم وإيصالها إلى السيارات المركونة بعيداً.

قلبي يخفق بشدة كلما تراءى لي من يشبهه، أقرّب النظارات من عيني كأنني هكذا سوف أرى أفضل وأسرع. لم تصل الطائرة في موعدها. لم أضطر للسؤال. كثر كانوا يشدون الواصلين من ثيابهم ليسألوهم من أين جاؤوا. كنت واقفة هناك وقد فات ساعة على موعد الطائرة. يداي ترتجفان كأن برداً شديداً قد حط فجأة. الضوء بدأ يتلاشى تدريجياً، الشمس تبتعد. ارتديت الجاكيت التي أحملها، رتّبت سترة إبراهيم المطوية فوق ساعدي. الأماسي باردة في أواخر تشرين الثاني.

أصوات تنادي القادمين بأسمائهم. عناقات طويلة تسدّ الطريق على الخارجين. عائدون من ليبيا حملوا صرراً كبيرة أو حقائب عندما تنكسر مسكاتها يرفعونها فوق الكتف. يسارع الحمال لمساعدتهم، يزجرونه بعيداً. وجوه يتضاعف تعبها تحت النور المتلاشي. لا أدري من أسأل لأعرف سبب التأخير. هناك كثر

ينتظرون مثلي. أسمعهم يتحادثون. أحدهم يقول إنه سأل عن التأخير فأخبروه أن الطائرة ستحطّ. لا يهمّ كم ستتأخر. لكنهم لا يعرفون متى حتى الآن.

لم يأتِ إلا عند حلول الظلام. خفت ألا يراني أو أن يمرّ بمحاذاتي ويحجبه الواقفون أمامي. لمحته يجول بعينيه ما إن يخرج. لم أنتبه لنفسي أصرخ باسمه دون توقف. أردته أن يطمئن إلى أنني هنا. كانت دموعي تمنعني من تمييزه مقترباً. وقفت قبالته ساكتة. استمرّ صمتي حتى بعد أن حمل حقيبته مجدداً ومشينا. خجلت أن أرفع رأسي باتجاه وجهه القريب. أشحت جهة شباك السيارة طوال الطريق. في السيارة كان يسألني، أرد بإيماءات أو بإجابات مختصرة. كان هو إبراهيم من أحبه ومن انتظرته. لكنه في الوقت نفسه بدا مختلفاً. لا بسبب وزنه الذي زاد، ولا بسبب شيب غلب الأسود في شعره ولا بسبب اللهجة التي امتزجت بلهجات أخرى. شيء ما لم أستطع تبيّنه آنذاك. كنت أرقب مصابيح السيارات. أردت أن أنسى أنني حزينة هكذا. كيف أكون كذلك وإبراهيم هنا. كأن تعباً طويلاً ومؤجلاً حضر فجأة، مد يده يمسك يدي. قال شيئاً عن شعري الذي قصصته وعن لون الجاكيت التي أرتديها. سألني عن أمي وعن يارا. عندما تكلم عن الأوضاع راح السائق في حديث لن يتوقف عن قرف الناس من كل الميليشيات دون تمييز، عن الفقر، وعن القتال بين الأخوة. استمر يحكي حتى عندما وصلنا، يسأل إبراهيم «مش مزبوط يا أستاذ أو عم أحكي غلط؟» إبراهيم يهز رأسه مغلوباً على أمره، ينظر باتجاهي مبتسماً.

في الأيام التالية بدا إبراهيم متفائلاً في كلامه عن أوضاع البلد، وعن إمكانية انتهاء الحرب فعلاً. لا أذكر إن كانت توقعاته مبنية

على شيء آنذاك أم أنها مجرد أمنيات صدّقها.

الفترة التي أعقبت عودته بانت شبيهة بسنوات زواجنا الأولى، رجعت سهراتنا الطويلة. أصدقاء كثر لم نرَهم منذ زمن زارونا.

في المكتب يغلبني النعاس. أنجز عُشْر ما اعتدت إنجازه سابقاً. ليس التشتت والشرود فقط بل النعاس الذي يستولي علي حتى لو كنت واقفة. أنهض مرات عديدة عندما تثقل أجفاني. أتذكّر قدرتي فيما مضى على السهر دون أن يتأثر عملي.

إن فتحت كتاباً أغفو قبل أن أنهي سطراً. حتى في سيارة الأجرة، أنام نومات قصيرة توقظني منها زمامير السيارات. لم يعانِ إبراهيم من هذه المشكلة. ينام حتى وقت متأخر. يستفيد من العطلة. لم يبدأ بعد البحث عن عمل. لم نكن في عجلة. المبلغ الذي وفّرناه في أكثر من سنة يسمح له بالراحة لبعض الوقت. رغم أن مصروفنا صار كبيراً منذ عودته بسبب السهرات والنزهات.

أعد نفسي بالنوم بعد الظهر. أحسّ كأنني سأنام لأيام إن لم يوقظني أحد. لكن عندما أصل إلى البيت يتبدّل كل شيء. قد أجد زواراً إن كان إبراهيم وحده، يجلس معي في المطبخ بينما أحضّر طعامنا. نشرب كأساً قبل الأكل ثم أخرى حتى يحلّ المساء دون أن ننتبه لا للوقت ولا للطعام الذي برد قبل أن نمسّه.

الزيارات التي تزعج إبراهيم هي تلك التي يقوم بها رفاق له من السعودية. كأن ذلك الود بينهم كان مؤقتاً يخص تلك البلاد. يطلب مني أن أرد بدلاً منه على الهاتف. أتهرّب من زياراتهم. أتذرّع بحجج تضحكه، يقول إنني بلهاء لا أجيد الكذب.

الليل يحمل زواراً دائماً. لا نكون وحدنا مجدداً إلا في وقت متأخر. يجلس إلى طاولة المطبخ بينما أغسل أكداس الصحون

والأواني والأكواب. نسترجع الأحاديث. نعلّق على بعضها، نستفسر عن جملة سمعناها ولم ترق لنا. أو نضحك من أشياء قيلت أو أفعال خرقاء قمنا بها.

ساعات قليلة من النوم. يرنّ المنبّه وقتاً قبل أن أدرك أن الصوت ليس مصدره الحلم. كنت أنتظر عودة إبراهيم للعمل لتنتظم حياتنا قليلاً.

من حين لآخر أحنّ إلى الأوقات الهادئة التي كنت أجلس فيها وحدي. أقرأ وأكتب له. عندما عاد، وجدت صعوبة في الكلام معه. أستمرّ بالكتابة إليه في رأسي. كأن هناك رسالة لا تنتهي أبداً. زعل عندما أخبرته إنني متعبة من هذه الوتيرة.

ثم وجد عملاً مؤقتاً مع شركة عقارات. تشتري مباني قديمة، أو متهدمة أو واقعة في مناطق التماس. إن كان فيها مستأجرون دفعوا لهم تعويضات قليلة. يسألني أحياناً في أمور قانونية. يقول إن للشركة محامين يتوكلون بأدق التفاصيل لكنه يجدهم محتالين. يضحكون على الناس ويأكلون حق المساكين. لولا حاجته للعمل لما استمرّ في الشركة يقول. قد يعرضون أيضاً على المالكين الذين يقاومون عروض الشراء ملكية شقق في المبنى الجديد الذي سيقيمونه بدلاً من القديم. لكل مالك أو مستأجر باب ينفذون منه إليه. مع الشهور اعتاد عمله. ما عاد يتأفف منه ولا من ساعات عمل إضافية تطرأ فجأة. أشياء كثيرة تغيّرت آنذاك. استعادت حياتنا بعض الهدوء. كنا نخرج معاً لحضور فيلم أو للسير في الشوارع. نشتري من تلك العربات المضاءة بقناديل كاز. أو نذهب في نزهة في السيارة.

أذكر مرة كانت تمطر بغزارة. الأمطار تسابق المساحات وتغيّب الطريق. ركنها عند الرصيف المقابل للبحر. كان الموج يعلو بدوره.

يتجاوز الدرابزين ويرش السيارة المغلقة. أغمض عيني. أسمع الماء يضرب بقسوة معدن السيارة كأننا في غواصة. طلبت أن نجد موقفاً آخر أقل رعباً. أضحكه خوفي. قاد صعوداً. توقفنا قرب بيت قديم من حجر. لا شبابيك ولا أبواب. قلبه دامس. تضيئه البروق للحظات فتظهر حديقته الخاوية إلا من جذوع أشجار يابسة. أخبرني إن الشركة اشترته منذ أسابيع لتبني برجاً حديثاً مكانه. لو كان يملك مالاً لاشتراه وجعله بيتنا.

هذا ما أذكره من ذلك اليوم. عدنا إلى البيت. لم يبدُ إبراهيم أكثر تعباً من العادة. دخلت إلى غرفة النوم لأرتدي بيجامة. قال إنه حضّر لي كأس جين ليحثّني على الإسراع. عندما دخلت إلى غرفة الجلوس كان التلفزيون مضاء. إبراهيم جالس في مكانه المعتاد. سيجارته تكمل اشتعالها في المنفضة، رأسه متكئ إلى مسند الكنبة. سألته وأنا لا أرى منه إلا ظهره إن كان به شيء. لم يردّ. اقتربت، وجدته مغمض العينين. لكنه لم يكن كالنائم. هززته. لم يرد.

ما أذكره وقوفي في الطوارئ ملفوفة بروب النوم. أبكي غير مبالية بعشرات الوجوه الغريبة حولي.

قال الطبيب إنها أزمة قلبية، ليست ذبحة. لكن الضغط عالٍ. يريد إبقاءه في المستشفى. الفحوصات الأولية لم تظهر شيئاً. غداً سيجري صورة بالرنين الصوتي. ذكر فحوصات أخرى لم أفهم ما تعني. «ليس هناك ما يشغل البال» أضاف حين رآني أستمرّ في بكائي الصامت محدقة بالخفين القديمين.

في الغرفة التي وضعوه فيها نسمع مولدات المستشفى، ضجة المصاعد، أنين المرضى. أغلق الباب. استمرّ في سماع الأسرّة التي تُجرّ، أحاديث الزوار في الممرات، عربات الطعام.

كان وجهه شاحباً. لم يسألني عما قاله الطبيب. طلب مني أن آخذه إلى البيت. قلت إن الطبيب يريد اختبار ضغطه وإجراء فحوصات بعد ليلة هادئة في المستشفى. دخلت الممرضة، أعطته حبات مختلفة من الأدوية. ثم نظرت نحوي. قالت «سينام جيداً الآن».

كان رأسه محنياً صوبي عندما ثقل جفناه وغفا. يمر الوقت. الأصوات تخفت. التدفئة خانقة في الغرفة. أتأمل وجهه النائم يعاودني الخوف. طول الليل يدمدم كلاماً غير مفهوم. يعبس أو يتقلب من جهة لأخرى بسرعة. أقف لصقه. أسمع أنفاسه. تتخدّر أطرافي. أسير نحو الستارة. أرفعها لأرى منها الليل والمدينة. في البدء لم أميّز ما الذي يقف خلفها. فيما بعد انتبهت إلى جدار الباطون الذي سدّ النافذة تماماً. ارتعبت فتراجعت إلى خلف. الممرضة تواصل تفقّد الضغط ثم تخرج. كان بكائي يتواصل. أحاول أن أستدعي أفكاراً أخرى إلى رأسي. كأن أقول إنه عارض وانتهى. لكن الخوف أقوى بكثير.

في لحظة واحدة تعود إليّ هواجس ووساوس كنت أظنّ أنني دفنتها.

أمسكت يده. ناديته: «إبراهيم». ابتسم لي. ثم عاد لإغفاءته. كان الفجر يطلع في مكان ما خارج الغرفة لكنني لم أستطع أن أراه من النافذة.

كنت أتوقع أضراراً أكبر من التي وجدناها. منذ حكيت مع يارا وأنا عاجزة عن النوم فعلاً أو الاندماج مع من حولي. لا أخرج في المشاوير معهم، ولا إلى حفلات الشواء في البرية. قالت يارا إن القذيفة أصابت الجهة الشرقية من البناية. يسألني إبراهيم لماذا أنا خائفة. الضرر قد حصل. ما الذي سيتبدل؟ لا أخبره إن الصورة التي تزعجني ليست الدمار. بل أن أجد البيت مشرّع الأبواب مكشوفاً للعلن والغرباء. لذلك عندما وجدت باب الحديد في مكانه ارتحت. ما عدت منشغلة بمعرفة مواضع الإصابة.

جزء من شرفة المطبخ تهدم. الشظايا أفسدت رخام المجلى. الغسالة نخرها الرصاص وتخلّعت جوانبها إضافة إلى النوافذ التي تطايرت في الشارع. الزجاج تناثر في كل مكان. لم أرد أن نغادر البيت وننام في مكان آخر. كنست الغرف. الثياب داخل الخزائن تمزّق بعضها من نثر الزجاج والأطر المعدنية. داخل الدرفات المشرّعة بدت الملاءات والمناشف وسخة قديمة تعلوها طبقة من التراب الأغبر. كان علي العمل طويلاً قبل أن نتمكن من النوم في سريرنا. سددنا النافذة بالنايلون ثم مددنا شرشفاً، فتذكرت بيتنا الأول. رغم شطف الغرف بالماء وبمساحيق التنظيف ظل الهواء مشبعاً بالغبار. قال إبراهيم إنها رائحة الحريق التي يصعب الخلاص منها لشهور. يعرف هذه الرائحة جيداً، تعشق وتلازم جدران تلك البنايات التي يعاينها...

كانت أعمال بناء وتدعيم الشرفة طويلة. الجيران أيضاً أصلحوا الأضرار. كان الضجيج يستمرّ حتى يحل الظلام. تحوّل البيت إلى مكان عام، العمال يدخلون ويخرجون من الباب الذي يبقونه مفتوحاً. ينادون بعضهم بأصوات عالية. صعب عليّ المكوث في البيت حتى حين أغلق باب غرفة النوم علي. صرت أتأخر في العمل قدر الإمكان. التصليحات استنفدت أيضاً كل مدخراتنا.

لم تأتِ أمي وأختي لزيارتنا بعد عودتنا. قالت يارا إن أمي يتعبها صعود الأدراج. لم تخبرني إنها مريضة. مررت بهما بعد خروجي من المكتب. قال إبراهيم أن أتجنب العودة إلى البيت باكراً. العمال سيستخدمون المثقاب لتثبيت الدرابزين. كان شهر رمضان قد بدأ. لذلك تمكنت من إيجاد القطايف التي تحبها يارا تلك المحشوة بالقشطة. فرحتْ كما توقعتُ، حزرت من الرائحة ما في العلبة. لم ألمح أمي. من عادتها أن تهرع باتجاه الباب ما إن تسمع صوتي. سألتها عن أمي. قالت «نائمة.. هي مريضة قليلاً». في صغري، قليلة المرات التي رأيتها فيها مريضة. غير الإنفلونزا لا أذكر أنها كانت تمرض. وجدتها نائمة. وجهها ممتقع. قالت يارا إن حرارتها مرتفعة الآن، لكن أقل مما كانت عليه. منذ أسبوعين أصابها حريق في منطقة البطن وحرارة قفزت إلى حدود الأربعين. سألتها لماذا تعقد منديلاً فوق رأسها. قالت تظنه قد يخفف من ألم رأسها.

المسكّنات لم تنفعها. الطبيب قال إن الألم سيستمر أربعين يوماً. الأدوية ترهقها. المضادات قوية على معدتها وعلى كبدها. المشكلة، تقول، إنها لا تجد الدواء بسهولة. غداً ستنتهي العلبة ولم تعثر على الدواء في أي صيدلية. رفضتْ عندما طلبتُ منها اسم الدواء. أغضبني عنادها. قلت إنني سآخذ منها ثمن الدواء إن كانت هذه هي

المشكلة. نظرتْ باتجاه أمي النائمة ثم أعطتني واحدة من العلب الفارغة. عندما دفعت ثمن الدواء فهمت. لذلك عدت ثانية إلى الصيدلية وقد حملت ما يكفي لأدفع ثمن العلب الأخرى. فكرت أن هذه تكفيها حتى ينتهي علاجها.

في اليوم التالي وجدت أمي صاحية تنظر بوهن. كانت في الخمسينات آنذاك لكنها بدت عجوزاً. منذ صغري أحسّها في أواخر السبعينات واستمرّت دائماً في هذا العمر.

عندما تعافت قالت يارا إن أمي تريد إهدائي غسالة. أي ماركة أفضّل؟ كذبت، ادعيت أنني اشتريت واحدة لا تزال في المحل بانتظار الانتهاء من أعمال الدهن.

أذكر ذلك المساء. كانت المرة الأولى التي تخرج فيها بعد تعافيها. وجدت عندنا واحداً من المهندسين مع إبراهيم في الشركة. جلست ساكتة عند طرف الكنبة. قلت لها «أريحي ظهرك يا أمي ما بك؟» ردّت أنها مرتاحة. لأخفّف من ارتباكها، دعوتها لرؤية البيت بعد التصليحات. كان جسمها الذي نحل ضائعاً وسط فستانها الفضفاض. في المطبخ اقتربت مني بخجل ووضعت في كفي علبة صغيرة أغلقت عليها بأصابعي. قالت إنها تعرف أنني لا أحبّ الذهب لكنه مجرد تذكار بسيط. في العلبة سلسلة رفيعة ذهبية تتدلى منها وردة صغيرة فيها حص زمردي. ليتني أخذت ثمن الدواء، فكرت.

وضعت السلسلة في عنقي. نظرتْ نحوي تتأملها مبتسمة راضية. في الأيام الأولى انزعجت منها، أحسست بوجودها، ثم نسيتها وبقيت على مرّ السنوات كأنها جزء مني.

في المكتب متدرجون جدد. أشكو لأحمد من بلادتهم. أقول إنهم يصغرون سنة بعد أخرى وإنني لا أذكر أنني كنت صغيرة

مثلهم. يضحك عندما يخبرني عن المرة الأولى التي رآني فيها. ظن أن والده بدأ يخرف ليقبلني. وأن الكلمات الوحيدة التي نطقتها على مدار شهر لا تتجاوز العشر. لم يتخيل لحظة أنني سأكون قادرة على الاقتراب من أي محكمة. ثم أضاف إن المتدرجين دائماً في أوائل العشرينات، لكن نحن من يكبر. ثم استدرك إنه هو من كبر حقاً أما أنا فلا أزال فعلياً شابة.

منذ عدنا لم نرَ أياً من أصدقائنا. اتصالات هاتفية من حين لآخر. أخبرنا رمزي عن حمل زوجته. كانت حاجتنا للابتعاد عن بعضنا قوية. أتعبنا هذا التلازم وهذا العيش المشترك.

أحياناً أمرّ بمي في محلها. تتركه في عهدة الموظفة عندها. ونجلس في مقهى. نتأمل المارة عبر واجهاته الزجاجية. نشرب البيرة الباردة فيما نتبادل كلاماً قليلاً عاماً.

يتعب إبراهيم من أن يكون موزعاً هكذا بين تصليحات البيت والعمل، مساءً يحكي عن قلة حياء أصحاب الشركة. ليس لديه اعتراض على عدم دفعهم رواتب الشهور التي تغيبها، لكن ماذا عن الشهر الذي عمل فيه ولم يعطَ حتى الآن أي راتب عنه؟ أخبره العاملون معه إنهم كانوا يحضرون يومياً للعمل تحت القصف لكنهم حتى الآن لم يقبضوا رواتبهم المستحقة. يعلم أن الشركة قد تقفل. عدد من المستثمرين فيها فقدوا حماسهم لمشاريع البناء بعد الحرب الأخيرة. لكنه حالياً سيبقى رغماً عنه. لن يترك عمله ما لم يؤمّن بديلاً أفضل.

الحمية التي فرضها الطبيب عليه لم تنفع. أمتنع عن التدخين بحضوره علّ ذلك يساعده، أراه يسحب سيجارة. أسأله أن يؤجل تدخينها. يقول «فقط هذه السيجارة» يستمر في تكرار ذلك طوال

الوقت. استغنيت عن إضافة الملح إلى الطعام، فبات يغرق طعامه به. عندما أذكّره بما قاله الطبيب لا يجيب كأنه لم يسمع شيئاً. أو يعدني بأنه سيبدأ بالانتباه والحرص على صحته بدءاً من الأسبوع القادم.

عدا مدخولي المالي في المكتب، لم يكن هناك ما نعتمد عليه. يراجع إبراهيم عبثاً بشأن رواتبه غير المدفوعة. لكن بعد ستة أو سبعة أشهر صُرفت الرواتب للجميع وعاد العمل إلى سابق عهده. يبيع إبراهيم سيارته، ويشتري أخرى يقول إنها أحدث وأقوى. الانفراج الفجائي في عمله لم يطمئنه تماماً إذ راح يبحث جدياً عن فرصة أخرى. قال إنه هذه المرة يريد عملاً لا يتركه بعد فترة.

صحيح أنني لم أكن أرى أمي وأختي كثيراً، لكنهما إن لم أمرّ بهما، تحاولان الاطمئنان علي. قد تمرّ يارا بالمكتب أو تتصل بي. لكن خلال حرب الإلغاء لم تأتيا لزيارتي أبداً. انشغلتا عني بأقارب لأمي، نزلوا في بيتهما. يارا تذكرهم أما أنا فلا. ابنة خالة أمي مع ابنها وزوجته وأولاده الثلاثة. قالوا إنهم تاهوا عن البيت. الشوارع تبدلت كثيراً عما كانت عليه. ظننت أنهما ستنزعجان لاضطرارهما العيش مع غرباء. لكنني كنت أرى يارا قد جمعت الأولاد الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والعاشرة. تدرسهم بعد الظهر كل ما فاتهم في تعطيلهم. تسمّع لهم. تجري امتحانات. وهم ثلاثتهم يجلسون خجلين لا يجرؤون لا على الرفض ولا على إظهار التعب أو الملل. النساء يقتسمن أعمال المنزل. يتبادلن وصفات طعام عندما يجتمعن للطبخ أو لإعداد الحلويات. بدت أمي سعيدة باستعادتها ذكريات طفولتها مع ابنة خالتها. ذكريات وقصص لم أسمعها تحكيها أبداً. الابن يتجول في الشوارع الجديدة. يكتشف المحلات، يشتري الأغراض التي طلبوها، حتى وجد أن بإمكانه أن

يلتحق بفرع للمصرف الذي يعمل فيه في منطقة المزرعة.

كنت حين أقرع الجرس أسمع ركض الأولاد الثلاثة في الممر باتجاه الباب. لكن ما إن يلمحونني حتى يهربوا خائبين.

أهل إبراهيم أيضاً استقبلوا أقارب هاربين من المعارك. لكنهم تركوا لهم شقة بيروت واستقروا هم في بيتهم الجبلي.

في المكتب كان عدد الزبائن يزداد. اضطر في الكثير من الأيام إلى أخذ ملفات معي. إبراهيم أيضاً ينشغل في الخرائط والأرقام. أدعوه لنستريح معاً قليلاً. نخرج إلى الشرفة، ندخّن سيجارة في العتمة متكئين إلى الدرابزين. نتأمل الناس داخل بيوتهم، غافين على الكنبات تحت ضوء النيون. أو جالسين إلى طاولة الطعام. نسمع طقطقة الصحون والملاعق، صراخ طفل يستيقظ مذعوراً أو جائعاً. جرارات المحلات تقفل. رائحة المازوت أقوى من روائح زهور يلويها نسيم الليل. أحياناً تطول الاستراحة ونتناسى العمل. نحضر ما نشربه. إبراهيم يحب الباذنجان المكدوس مع اللبنة. أقول إن الملح كثير في المكدوس، أعرض عليه أكلاً الملح فيه قليل. لا يرد. يبتسم «ألا يكفي كل هذا الدواء؟» لا ينفع أن أدخل معه في جدال حول كثرة تدخينه ومشروبه. يحوّله إلى مزاح مدعياً أن جده عاش تسعين سنة بضغط عال، بقي يدخن حتى مات.

لا أدري عما نحكي. لكننا كنا نؤجل نومنا. نستمر في جلوسنا حتى يصمت ما حولنا. تنطفئ الأضواء واحداً تلو الآخر. نسمع خطوات الماشين في الشوارع، أزيز الكهرباء في الأشرطة، جريان الماء في القساطل. أشرب جرعة من كأسي. أنظر إلى إبراهيم ماداً قدميه أمامه فوق كرسي. أستطيع أن أعيش هذه اللحظة إلى الأبد، أفكر.

فرحت مثل إبراهيم عندما بدأ عملاً جديداً. ما عاد يرجع إلى البيت صامتاً كمن يكتم هماً. مساء يبدو في عز نشاطه حتى بعد يوم طويل من العمل. على خلافه، ما إن تحلّ العتمة حتى يقعدني التعب عن الحركة. لكن عند وصوله أصاب بعدوى حماسه. أسمع أسماء كثيرة لرؤساء وعاملين معه. يقول إنه يحب أن يعمل في إطار جديد كلياً، لا يهم أن اختصاصه مختلف عما يعمله.

مجلات وكتب للديكور والهندسة الداخلية توزعت في كل مكان من البيت. فوق طاولة المطبخ، على الكومودينة في غرفة النوم، فوق الكنبات. بينما نأكل، يواصل النهوض عن الطاولة ليأتيني بمجلة أو كتاب فأرى الشكل الذي يقصده لقوس باب أو حديد واجهة. حفظت تعابير هندسية. تعلّمت أموراً تتعلق بالتوفير في تنفيذ التصاميم. يدلّني أثناء حديثنا على البناية التي التزموا أحد المشاريع فيها. دائماً يشير إليها باسم الشركة التي بنتها. ينتبه أن ذلك لن يساعدني. يعدد المصارف أو المطاعم الكائنة فيها، أحياناً أحزر الموقع وأستمرّ بالإنكار حتى يأتي بورقة. يرسم عليها الشارع، البنايات، يكتب أسماء المحلات، يرسمني في وقوفي في الشارع. غالباً ما أحتفظ بهذه الرسومات. أحب تلك البنايات التي لا يهمل في رسمها أدق تفاصيل، نوافذها، شكل بنائها، حتى الأرصفة أمامها أو الشجرة القريبة، يرسم المواقف ومستديرات الطرق. أما

حين أدلّه على مكان فأربطه بذكريات ما: المكان الذي أكلنا فيه مناقيش طيبة. أو البناية التي احتمينا بها من المطر. الطريق التي تعطلت السيارة فيها. البيت الذي لشرفته ستائر عليها رسوم بحار ودلافين. يضحك قائلاً إنني لا أدله بل أضيّعه، «للأماكن أسماء وجهات وعلامات تميّزها، كيف لي أن أستدل منك على شيء؟».

يصطحبني إلى معامل للبلاط والرخام والقماش والأدوات الصحية، عند الحداد والنجار، يسألني رأيي. أو يطلب أن أختار ما بين النماذج. أراد إبراهيم أن يتعلم كل شيء في وقت قصير. يحكي عن خطة لتوسيع أعمال الشركة خصوصاً وأن الحرب انتهت الآن.

في كل شارع أسير فيه أعمال هدم للمباني المدمرة أو إصلاح وطلاء لواجهات المباني، بناء، ترميم. كثرت أيضاً اللافتات على المحلات تعتذر عن الإغلاق المؤقت بسبب أعمال التجديد والديكور. كل شيء حولنا يتغير بسرعة كبيرة. تعرفت على المنطقة الشرقية التي لا أذكر منها إلا بيت جدي لأمي. قربه كنيسة. أذكر جرسها النحاس. الحمام الأبيض الذي يحط على سطح بناية مقابلة. نبتة الحبق في إناء عند شباك المطبخ. الدرجات الثلاث التي نجلس عليها أمام الباب نتأمل الطريق. في الطوابق الثلاثة الأخرى أقارب آخرون، يبقون أبوابهم مفتوحة. كانت البناية كأنها بيت واحد. ندخل أحدها راكضين لنخرج ونختبئ في آخر. لدى الجميع أولاد في مثل عمري أو أكبر.

كانوا دائماً في قلق لا يتمكنون من حصرنا في مكان أو إيجادنا خصوصاً في مواقيت الطعام. زياراتنا كانت تقتصر على الأعياد أو مناسبات اجتماعية. ما كنا نجلس مثلهم إلى طاولة الطعام لساعات. نطلب السندويشات. حتى حين يقولون إن هذا الأكل أو ذاك لا

يمكن وضعه في سندويش. نصرّ فنأكل سندويشاً من التبولة أو الفتوش إضافة إلى آخر فيه كبة أو مغربية. ننصرف بعدها للعبنا وركضنا الأهوج ورشقنا السيارات بالحصى الصغيرة ثم الاختباء. بعد وفاة جدي وجدتي بيع البيت. ما عدت أعرف شيئاً عن أولئك الأولاد الذين لعبت معهم حتى الحادية عشرة من عمري.

إبراهيم يصطحبني أيضاً إلى شوارع مهدمة بالكامل، يسأل عن وكلاء بعض المباني. يشتري ما بقي فيها سالماً أو قابلاً للترميم كالحديد المطروق أو التماثيل التي نخرها الرصاص أو حنفيات نحاس قديمة. لكن بالإجمال، قليلة هي المباني التي لم تنهب بالكامل...

حين نخرج مع أصدقائنا، نختار تلك الأماكن الجديدة. أسماء مختلفة دخلت على حياتنا. الأمبير - أبراج - الجميزة - جونيه - الكسليك - السوديكو - طريق الشام - ساحة ساسين.

عملنا في المكتب تضاعف أيضاً منذ صرنا وكلاء لشركة كبيرة تستورد اللحوم من البرازيل والأرجنتين إضافة إلى العلف ومواد البناء والسيجار والكافيار والمشروبات. كثيرٌ ما يضطر أحمد إلى السفر لتوقيع العقود وتصديقها في الخارج. يغيب أحياناً ليومين أو لأسبوع إذا كان البلد بعيداً. أنوب عنه في هذه الأثناء. اعتاد الوكلاء الآخرون تدريجياً على التعامل معي. حتى في وجود أحمد، يحيلهم عليّ لأنصحهم أو لحل مشكلة قانونية عالقة أو لأؤمّن الأوراق القانونية والعقود. جُدّدت المكاتب الخشب، طليت الجدران، استبدلت الموكيت القديمة بأخرى جديدة، استغنينا عن خزائن الحديد. صورة الأب طلال يصافح الرئيس شارل الحلو أُنزلت عن الجدار خلف مكتب ابنه. لم يرد أحمد أن يتغير شيء في تقسيم

الغرف أو الشبابيك الحديد. حتى باب المدخل القديم بقي على حاله باستثناء الطلاء.

هدايا كثيرة توزّع علينا. يفرح إبراهيم بعلب السيجار الفاخر. يقدّمها لرئيسه. المشروبات على رغم عدم معرفتنا بأنواعها، نشربها ونعتاد طعمها. مع الوقت نجد طرقاً جديدة لتحضيرها.

يصرف أحمد السكرتيرة القديمة. يقول إنها لا تلبي أي طلب بشكل صحيح. وظّفها إكراماً لشخص يعرفه. لكنها بالمقابل لا تجيد الرد على التلفون ولا استقبال الناس. تعبس في وجه الجميع وحين يُطلب منها تصوير أوراق، تتذرع بالآلة التي تعطلت أو بالحبر الذي نفد. أما القهوة فلا تأتي بها إلا بعد انصراف الزبائن. رغم إن ما قاله صحيح. افتقدتها. كان صعباً أن أدخل في الصباح دون أن أراها جالسة خلف المكتب في المدخل. السكرتيرة البديلة حلّت في اليوم التالي مباشرة. كانت صغيرة، كأنها في العشرين على الأكثر. خلال أسبوع أعادت تنظيم كل الملفات بطريقة عملية. كما تعلمت العمل على الكمبيوتر دون أن تربكها تلك التسميات المعقدة. «نحن أول من يستخدم الكمبيوتر بين المحامين» يقول أحمد مفتخراً. تسجّلت في دورة لتعلم طريقة استخدامه. «الملفات تحفظ عليه، المراجع القانونية، بدل ساعات البحث، كبسة زر وتحضر القضية أو نص القانون أو الملف المحفوظ»، يقول لنا مندوب المبيعات.

أرباحنا السنوية زادت، أقبض لأول مرة مبلغاً كهذا في آخر السنة. بدا أحمد سعيداً عندما رأى حيرتي وأنا أقرأ الرقم على الشيك. قال إن في الأفق شركة ثانية وإن علي أن أحضّر نفسي للتفرغ لها والسفر حين يستوجب الأمر. نسيت الشيك تماماً عندما ذكر فكرة السفر. الابتعاد عن البيت، عن إبراهيم، أمرٌ أكرهه. في

قرارتي تمنيت أن نفشل. ما حاجتنا لعمل إضافي؟ نعمل دون انقطاع حتى في العطل. مايا رغم صغر سنها تشكو من الإرهاق والإجهاد الفكري. منذ صارت محامية في المكتب تبدّلت علاقتها بي. صباحاً تصل باكراً قبل السكرتيرة. أحياناً نجلس ونبدأ العمل على بعض القضايا المعقدة. أو نؤجل ذلك، نتمشى، نشتري كوبين من القهوة، نشربهما خلال سيرنا المتمهل في شوارع تشطف أرصفتها، وتفتح محلاتها واحداً تلو الآخر. نبقى للعمل بعد الظهر بعد انصراف الموظفين. مرة قلت لها أن تأتي إلى بيتي لنعمل في جو مريح ثم صار ذلك عادة خصوصاً وأن إبراهيم يتأخر أكثر فأكثر. لا ارتباطات عند مايا كما تقول. عندما فسخت خطوبتها لم أسألها عن السبب. لا زالت تخجل عندما يأخذنا الحديث إلى شيء لا علاقة له بالعمل، تحمر حتى لو أبديت إعجابي بحذائها.

أغفو والأوراق مبعثرة حولي. توقظني تكة المفاتيح. ينظر إبراهيم إليّ مستغرباً سهري حتى الآن. يسألني بلهجة غريبة: «ما بك»؟

كنت أعتقد أن انشغالي في الشهور الأخيرة بعملي هو السبب في انصراف إبراهيم إلى السهر خارج البيت. لذلك حاولت أن أضغط نفسي، أن أركّز أكثر لأحصر ساعات العمل في المكتب.

امتنعت حتى عن تلك الاستراحات التي أقضيها مع مايا أو واقفة إلى الشباك أشرب القهوة متأملة صالون الحلاقة النسائي في الجهة المقابلة. لكن ما تبدّل هو أن الساعات التي أقضيها وحدي زادت. يمرّ بنا أحد من أصدقائنا من حين لآخر، ينصرف قبل عودة إبراهيم. عندما أخبره يقول إن عليه أن يتصل قبل مجيئه إذ لديه أشغال هو ليقوم بها.

أحكي له عن تقدمي في الكمبيوتر، عن مرافعة أعدّها، عن خبر

قرأته أو نكتة طريفة سمعتها. يجيب على كل شيء بكلمة واحدة: «حسناً». حتى حين ينظر إليّ، يبدو كأنه يرى شيئاً آخر. ألمح يبتسم وحده، ترقّ ملامحه. أسأله «بمَ تفكّر؟». «لا شيء» يرد.

كنت أحسّ أنني وحيدة، وأن وقتاً طويلاً انقضى منذ تكلمت مع إبراهيم. أصارحه بذلك بينما نرتدي ثيابنا صباحاً. يرد: «ماذا تقصدين؟ أتظنين أنني ألعب طوال النهار؟» لا أنجح في إفهامه مقصدي.

أفكر أنه محق ربما. من يحتمل اللوم والعتاب؟ كيف يعلم أنني لم أقصد معاتبته. أخطط لشرح كل شيء لاحقاً. أتصل به في المكتب. لا أجده.

ليلاً أعجز عن النوم. أجلس في السرير. أنظر إليه وقد ابتعد إلى الطرف الآخر. «لو يضمني» أفكر. أنهض حافية. أمشي على رؤوس أصابعي. في غرفة الجلوس أدخن سيجارة تلو الأخرى، أدير التلفزيون دون أن أنتبه لما يجري على الشاشة.

في المرات القليلة التي نجلس فيها معاً للطعام يأكل ساكتاً. يتصفح مجلة عن الطاولات أو المصابيح. يلوك الطعام مستغرقاً في تأمل الصور. أحكي، لا يرفع عينيه نحوي كأن الكلمات لا تصل إلى مسمعه. أسكت في منتصف الجملة.

تفكيري مشوّش. لا أعرف إن كان ما أمرّ به مجرّد خيالات وأوهام من صنعي. ربما أنا من يبتعد. احترت من الأشياء التي تتغير حولي بسرعة. الثياب التي أشتريها له ما عادت تعجبه. الكتب التي أحكي عنها تضجره. الشقة التي نسكنها باهتة لا حياة في أثاثها. الناس الذين أعاشرهم يحدون من تفكيري. لا أعرف من يقصد. ربما قال ذلك يوم أحد. يكره الآحاد مؤخراً. اعتدت أن أخفي

الأشياء في أعماقي. ليس عن إبراهيم فقط. بل عن الجميع. أهلي لا أزورهم. عندما يقرع الباب مساءً لا أفتح. يرن الهاتف لا أرد.

أمراضي كثرت. اضطر في بعض الأيام لملازمة البيت. أستلقي فوق الكنبة. تمتزج الحوارات على الشاشة بأحاديث أجريها مع إبراهيم في رأسي.

عندما يعود لا ينتبه. كأنه يرى مشهداً عادياً ومألوفاً. أتظاهر بالنوم. أسمعه يحكي على التلفون. تنيمني الحرارة. أفتح عيني ثانية، ضحكات خافتة من جهة غرفة النوم.

لا أدري إن كانت الحرارة هي السبب أم أن الأشياء تحدث بالفعل.

عندما جاءت يارا إلى المكتب، حاولت التملّص من زيارتها. أكملت الكبس على الأزرار والتظاهر بقراءة ما على الشاشة. لكنها لم تبالِ بما أفعله. أخبرتني عن مالك البناية الذي عرض دفع تعويضات لإخلاء الشقق، هي لا تدري إن كان العرض مناسباً. لديهم مهلة شهرين للإخلاء بعد قبض التعويضات. وحدها لم تتوصل إلى حل. فكرت أنني أفهم أكثر منها في الأمور المالية والقانونية. لم أقل شيئاً. أحسست بالضيق. يتعبني مجرد التفكير بالجهود التي عليّ بذلها. ناديت مايا. أعادتْ يارا على مسمعها ما قالته لي. وعدتها مايا أن تمرّ مع خبير بعد يومين لمعاينة الشقة والاطلاع على المعلومات. «بعد تقدير الخبير، على مالك البناية أن يتفاوض معنا»، وأشارت إلى نفسها وإليّ.

لم أعرف أن الأخذ والرد سيطول إلى هذا الحد. لكن النتيجة أنهما حصلتا على تعويضات أكثر من الآخرين. العذاب الفعلي بدأ عندما لم تستطع لا أمي ولا أختي تقرير إذا كانتا ستستأجران بيتاً أو تشتريانه. هما مثلي لا تعرفان شيئاً عن السوق. لولا مايا لخذلتهما فعلاً. قالت إن والدها يعرف سمساراً جيداً، المهم أن نُحدّد المنطقة ليكون البحث مكثفاً.

على مدى أسابيع نجول بين بيوت كثيرة. أخيراً وجدنا شقة في بناية قديمة جداً. مؤلفة من غرفتي نوم وغرفة جلوس كبيرة. المطبخ

والحمام يحتاجان إلى التصليح. لكن السعر المعروض هو الأرخص حتى الآن. المشكلة يقول السمسار.. لا يكمل. يشير بإصبعه إلى البارات المحيطة بالمبنى. انتحت يارا بي جانباً. قالت: «ليس لدينا أولاد لنقلق على تربيتهم وأخلاقهم، لا أظن أن هذا الأمر سيهم أمي. ما دخلنا بما يجري حولنا؟ أين سنجد سعراً كهذا؟» قامت يارا بحسابات سريعة. وجدت أن الصفقة مناسبة لن تضطر للدين.

كنت برفقتهما في الصباح الباكر. نقف على الشرفة، ننتظر الشاحنة لتحمّل الأثاث. أنظر إلى الغرف الفارغة. أشياء قليلة تركتها أمي. ألعاب وكتب مدرسية كانت لنا. فرن غاز معطّل، منقل فحم صدئ، مدفأة كهربائية معطلة. لم أرافقهما إلى البيت الجديد. غادرت. جلست قليلاً في الحديقة. كان الندى يغطي المقعد. اليمام يقترب مني. ينقر من حولي فتاتاً أو أشياء منثورة هناك بقيت من البارحة. أخرج من البوابة الشمالية. أتمشى في زواريب لم أعبر بها منذ كنت صغيرة. الدكاكين القديمة لم يتبدل فيها شيء.

في سيري أستعيد مشاهد وأحاديث بيني وبين إبراهيم. عندما أكون بعيدة، أفكر أن كلاماً واضحاً بيننا قد يكون ممكناً.

لكن في البيت الأمور تختلف. كأنه لا يرى أن حياتنا تبدّلت حقاً.

أذكر أنني كنت أتهيأ للخروج. أرتدي ملابسي في الحمام. صرت أخجل من فعل ذلك بوجوده. دق على الباب. يحثني على السرعة. نسي المفاتيح في الداخل أمام مرآة المغسلة. قلت له أن ينتظر قليلاً، أريد مكالمته. أجاب إنه في عجلة من أمره.

– لن يكون كلامي طويلاً. لكنني لا أستطيع الخروج اليوم دون أن أفعل ذلك.

حملت المفاتيح في يدي. خفت أن أفقد شجاعتي. لذلك بدأت بالكلام بينما نسير باتجاه المطبخ.

- نحن لا نعيش مؤخراً حياة مشتركة. أريد أن تكون صريحاً، تذكر أننا لسنا مضطرين للكذب.

- انظري إلى نفسك قبل أن تتهميني.

- ماذا تقصد؟ سألته بانفعال شديد.

- أين تنامين كل ليلة؟

- نومي على الكنبة كل ليلة نتيجة لسلوكك وليس سبباً له.

- هذا ما أنت شاطرة فيه. الجدال. لسنا في محكمة، تذكّري.

- أتظن حقاً أن كل شيء طبيعي وعلى حاله وأنا أتخيّل؟

- ماذا أفعل إن كان لديك مخيّلة تراجيدية. الذنب ليس ذنبي.

دون إرادة مني يعلو صوتي أكثر من صوته. أتهدج بالبكاء رغماً عني: «أنا لا أعرف من أنت. بمَ يفيد الإنكار؟ لا يمكن أن تكون أعمى. نحن لا نقوم بأي شيء معاً. أنا لا أدينك. أريد فقط أن أفهم».

- «ما الذي تريدين فهمه؟ قولي». صرخ بي متناولاً مفاتيحه عن الطاولة قبل أن يرميها بعنف نحو الجدار ويضرب الكوب بيده فيتطاير نثراً صغيرة في أرض المطبخ.

كان دائماً هناك خوف في داخلي. أيمكن أن تصور لي مخيّلتي كل ذلك؟ ثم أذكر كل الأشياء. كل الوحدة التي أعيشها.

بعد أيام تسألني يارا بينما عيناها تترصدان رد فعلي: «ألم يخبرك إبراهيم أنني التقيت به؟ كان مع واحدة تعمل معه. سألني أي بيت؟ عندما دعوتهما للمرور ببيتنا بما أنهما قريبان منه. ألم تخبريه تسألني؟ أيعقل ذلك؟» أرد بهدوء إنه أخبرني عن التقائه بها. وإنه

نسي تماماً أنهما انتقلتا. لم أدرِ إن كان كذبي قد انطلى عليها أم لا.

بعد ذلك بوقت قصير جاء إبراهيم إلى البيت باكراً على غير عادة. قال إنه يريد الحديث معي. قال دون أن ينظر إلي:

- «أرى أن حياتنا مع بعض ما عادت ممكنة. أنا لا أحبك. أعتبرك بمنزلة صديقة. صديقة يهمني أمرها دائماً ويهمني أن أكلمك. لا أكثر».

- «حسناً». أجبت. لم أزد شيئاً. عدت إلى الأوراق التي أتصفحها دون أن أفهم ما هي. كنت أنتظر أن يخرج من الغرفة. لكنه استمرّ يحدّق بي كأنه ينتظر تتمة لكلامي.

الحديث الثاني جرى بيننا بعد أيام حين قال إنه مستعد ليترك لي البيت ويغادر، لكن عليّ أن أمنحه بعض الوقت ليدبّر نفسه. قلت: «لا، أنا من سيغادر. أصلاً لا أحتاج إلى بيت كبير». ادعيت أنني وجدت شقة. وسأراها قريباً لأتفق مع المالك. أضاف إن بإمكاني أخذ الأثاث على الأقل. لم أردّ.

في الأيام التالية بدأتُ أتفقد الإعلانات لكن ذلك لم ينفع. لم أجد شيئاً بواسطتها. قصدت سمساراً أرى مكتبه كل يوم في طريقي إلى العمل. وجد لي شقة مفروشة غير بعيدة عن المكتب. لم يكن إيجارها غالياً جداً. صحيح أنها ليست شقة فعلاً بل غرفة كبيرة فيها كنبة وسرير إضافة إلى طاولة وكرسيين. المطبخ ضيق لكن فيه براداً صغيراً وغازاً برأسين. لن أحتاج أكثر. الشرفة واسعة تطل على بناية يسكنها مهجرون. قال بينما يريني الشقة إن البناية المقابلة سيتم إخلاؤها من المهجرين قريباً. لم أفهم بما يهمني أمر كهذا. دفعت مقدماً إيجار ستة أشهر.

كنت أفتقد البيت قبل مغادرته. صار إبراهيم يعود باكراً. أخجل

من وجوده، من دخوله إلى الغرفة بينما أوضب ثيابي. أرد على كلامه باختصار. كنت أتمنى أن تمرّ الأيام بسرعة لتحل بداية الشهر وأستلم الشقة. التوضيب يتعبني. لا أعرف كيف تجمعت لدي كل هذه الثياب والأحذية. أفكر ما حاجتي إليها كلها؟ القليل منها يكفي. لكنني لم أرد تركها في البيت. رميت بعضها .

يرتبك إبراهيم ما إن يراني. يشرب وحده ثم يبحث عني بين الغرف. قد يسألني إن كنت أكرهه. أقول: «تعرف أن ذلك غير ممكن، لكنني لا أحب هذا النوع من الأحاديث».

كنت مشغولة البال. لا أعرف كيف أخبر أمي ويارا. كيف ستتقبلان الأمر دون استجوابي أو دون أن تحيطاني باهتمام زائد. لذلك أخفيت كل شيء عنهما إلى أن صار ذلك غير ممكن. هناك من سأل يارا عن أحوالي بعد الانفصال. لم تقل شيئاً لأمي. هرعت إليّ في مكتبي. كانت تبكي وأنا أحاول التخفيف عنها. قالت «كيف تحرمينني هكذا من الوقوف قربك؟ لماذا تفعلين ذلك بنفسك وبنا؟» لم أجب. سكتُّ أيضاً حين سألت عن السبب. ثم قلت «أرجو في حال أردت مساندتي ألا تذكري الموضوع ثانية. أنظري إلي. هل هناك ما يُقلق في شأني؟».

معرفة يارا حررتني قليلاً.

كنت أعود إلى الشقة. أفتح الراديو بينما أغتسل. ألبس البيجامة. أضع بعض الطعام والخبز على الصينية. لا يهم، جبنة، فضلات من البارحة، أفتح علبة طون. أسكب كأساً. أجلس على الكنبة أمام التلفزيون الصغير. أو أضع الطاولة قبالة باب الشرفة. آكل متأملة السماء أول المساء. أحياناً أتأخر في العودة خصوصاً في الشتاء. أسير جهة البحر. عندما أقترب من بيت أهلي أعود أدراجي.

مرة التقيت عدنان. لم أنتبه له بداية. لكنني سمعته يناديني. ارتبكنا كلانا. سألني عن أحوالي، عن سكني، دللته بطريقة مضللة. قال إنه وزوجته يفكّران كثيراً بي ويحبان أن نلتقي.

- إن شاء الله قلت، ثم ابتعدت ملوحة له بيدي.

مي أيضاً استدلت على بيتي من أختي يارا. عندما فتحت الباب قالت بطريقتها المعهودة: «يا محتالة لا تبدو عليك السعادة لرؤيتي».

هي الأخرى وعدتها أن نلتقي ونتزاور.

في اليوم التالي طلبت من السكرتيرة ألا تمرر من الآن وصاعداً إلا المخابرات المتعلقة بالزبائن. رسائل تترك بعد ذلك لي، أرقام هواتف لأعاود الاتصال، دعوات مطبوعة أرميها كما هي في السلة.

في أحلامي أرى إبراهيم جالساً معي على شرفة بيت أهلي القديم. أحياناً أهرع لملاقاته في موعد اتفقنا عليه. لكن عوائق تؤخرني. كأن تصبح الطريق موحلة أو أتوه أو تندلع الحرائق والانفجارات. عندما أصل يكون بيتنا بلا سقف جدرانه كومة من الحجارة.

عندما أمتنع عن زيارة أهلي. تمرّ بي يارا عند العصر وقد حملتها أمي طعاماً حضرته من أجلي. تخجل من طرح أسئلة مباشرة. تفعل ذلك بطريقة مواربة كأن تسألني عن معاملة الطلاق إن انتهت. أفهم مقصدها. أقول: «بلى، عرفت أن إبراهيم تزوج».

تسألني لماذا ليس لدي هاتف خليوي، عندما تريد أن تطمئن على أحوالي المادية. أقول إن لدي أكثر مما أحتاج. لا أدري ماذا أفعل بالمال الذي أحصّله. «لماذا لا تسافرين أو تشترين سيارة أو ما رأيك لو تشترين بيتاً بالتقسيط؟». أردّ أنني لا أحتاج كل ذلك.

أصرّ لاحقاً على توصيلها إلى البيت. تقول إنها ستركب سيارة أجرة.

نترافق مشياً. في الشوارع المضاءة، نتأمل الناس في مقاهي الأرصفة. «لماذا يبدون بلا هموم؟» تسألني يارا.

- لديهم هموم. لكننا لا نعرفها.

نعرج بعدها نحو شوارع أقل حيوية. محلات مقفلة. صفوف من السيارات المركونة. السير أخيراً باتجاه البحر. نختلط بالعدائين والمشائين.

تقول يارا إنها وأمي محظوظتان. من كان يعلم أن بيتهما سيرتفع سعره هكذا وأن المنطقة ستعمر مجدداً.

لماذا لا أسكن معهما؟ تسألني. لا أرد. أقف في العتمة. أنتظر أن تتوارى في الزاروب. تتوقف عن السير. تلتفت نحوي تلوح بيدها ثم تدخل في الزاروب.

صارت عودتي إلى شقتي تتعبني. تمنيت فعلاً لو لم تُخْلَ البناية المقابلة من المهجرين.

كل أنواع الضجيج تستمر حتى وقت متأخر. في كل الشوارع التي أسير فيها لا أسمع سوى الجرافات وجبّالات الباطون. أنتقل من جهة إلى أخرى كلما صادفت ورشة، أكثر ما يقلقني هو الأذرع المعدنية. أحس أن تلك اليد الحديد قد ترتجف فتنقصف وتسقط فوق رأسي الأحجار الضخمة. أمشي مواصلة التحديق إلى أعلى. كثيراً ما أتعثر وأقع نتيجة ذلك. تطير حقيبتي من يدي. أحياناً يفلت الحذاء من قدمي. جروح تملأ يدي وقدمي. أبحث عن أزقة داخلية لأتجنب المرور بالشوارع الرئيسية. لم يكن الضجيج هو المشكلة الوحيدة. كان هناك العمال الذين يتوزعون على كل الطوابق. ينصرفون إلى التحديق بالساكنين في بنايتنا كأنهم يتابعون مسلسلاً يومياً. أبقي ستائر الشرفة مسدلة. الحرارة ترتفع في الشقة وينحبس الهواء عني. كل شيء مغطى بغبار. لا ينفع لا مسحه ولا إغلاق الأبواب. يدخل من الفتحات الضيّقة، يترسب على الثياب والأحذية داخل الخزانة. تسألني يارا: «أليس هناك إلا صغار في هذه البناية؟ كأنها مدرسة داخلية، ألا تشعرين بالغرابة لسكنك بينهم؟

– بم تهمني أعمارهم، ثم ليسوا في المدارس، إنهم طلاب جامعات. الجدران رقيقة لا تكتم أصوات الموسيقى والسهرات التي

يقيمونها في آخر الأسبوع خصوصاً. لكن لسبب ما كنت آنس بها عندما يجافيني النوم. أغاني جديدة، غريبة النغمات لم يسبق أن سمعتها. مع مرور الوقت حفظت كلمات بعضها، أردده وأنا نصف نائمة.

ما إن أعتاد الوجوه التي ألتقيها وأنا أنزل الأدراج أو عند المدخل حتى تتبدل ثانية.

مهما أتأخر في العودة، تستمر الورشة إلى الحادية عشرة ليلاً كل يوم. أرفع صوت الراديو أو التلفزيون لكن الأصوات تتبعثر. فلا أسمع سوى الطرطقة العنيفة وذلك الصوت المعدني الذي ينخر الجدران.

أتجاهل في دخولي وخروجي صاحب المبنى. مكتبه في الطابق الأرضي. يطل عبر بابه الزجاجي على المدخل. لكنه مؤخراً بات يترصدني، يتعمد مصادفتي. يطرح علي بعض الأسئلة القانونية. أبدّل مواقيتي. ذات مساء لمحني. أسرع نحوي. وقف قبالتي كأنه يسدّ علي الطريق. أشار بيده إلى بناية ملاصقة، قال إنه يملك هذين المبنيين وإنه رفع بدل الإيجار على الساكنين إلا أنا لكن، تعلمين، قال «كل شيء تضاعف سعره، ولأن لك معزّة خاصة، أعفيتك من الزيادة في الشهور الماضية، لكن...» قاطعته بجفاء لأسأله عن الزيادة. ومشيت. اضطراري لمبادلته الكلام من حين لآخر أزعجني. مع الوقت تحول إلى هاجس مزعج. اضطرب ما إن اقترب من البناية. في أقل من يوم كنت أبحث عن بيت غير مفروش استأجره. شراء الأثاث لم يتطلب مني إلا ساعة. اشتريت أثاثاً لغرفة النوم والجلوس. أبقيت الغرفة الثالثة فارغة. كان المطبخ رغم صغره يتسع لطاولة وكرسيين. يطل على موقف للسيارات فيه شجرة صنوبر

قديمة. مع الوقت صرت أستخدم الغرفة المقفلة. أكدس على أرضها الكتب والملفات. الشقة المجاورة لبيتي في الطابق مقفلة. أرى على شرفة مطبخها سلماً خشبياً وغسالة قديمة وعربة أطفال لم يبق منها إلا هيكلها الحديد الصدئ. الغبار الأسود على درابزينها وأرضيتها يظهر أنها غير مسكونة منذ سنوات.

لا أدري لماذا تحب يارا أن توصل إليّ أخبار إبراهيم. لا أفعل ما يشجعها. لا أعلّق على كلامها ولا أسألها عمن ينقل إليها هذه الأحاديث. هي أيضاً ترتبك قبل أن تحكي. تنظر بعيداً، تقول ما تريد قوله بسرعة كأنها تؤدي مهمة شاقة ومخجلة.

كنت آمل أن تتباعد مناماتي عنه مع مرور الأيام. يوم أخبرتني يارا بموت والد إبراهيم، رأيت كابوساً غريباً. كنت كما أنا الآن شكلاً وعمراً. إبراهيم كان في في أوائل العشرينات. كنا ماشيين في الشوارع القديمة نفسها. كل شيء مظلم حولنا وصامت. كلما سرنا زادت كثافة العتمة واستحال علي أن أرى إبراهيم. اختفى وصرت وحدي. المكان يتغير وأسير في شارع أعرفه باتجاه بيتنا الزوجي الأول. أصعد الأدراج على مهل. تصغر الدرجات كلما تقدمت ثم تصير شبيهة بسلم خشبي ضيق وشديد الاهتزاز. للوصول إلى البيت كان علي التمسك بحافة السطح لأرفع جسمي بصعوبة. في العتمة ألمح باب البيت. خشبه مهترئ ومشقق. أجده غير مقفل. البيت في فوضى. كأنه أهمل سنوات. أرى أغطية الصوف التي كانت لدينا آنذاك مكوّمة في الزاوية كالحة الألوان. أسير بخوف إلى غرفة النوم. أجد إبراهيم مستلقياً على جنبه. لكن الرطوبة على الجدران زادت عما كانت. صار العفن طبقة خضراء لزجة تغطيها كلها. الرائحة تقطع الأنفاس. إبراهيم نائم مرتدياً ثيابه وحذاءه. أضع يدي على

وجهه. أجده بارداً كالرخام. أنحني نحوه. أقبّل جبينه. أعلم فجأة أنه ميت. أصرخ صرخة أحسّ أنها تشق صدري وقلبي كالسيف. المدينة نائمة ومعتمة. الألم قوي، يتغلل فيّ ليصبح وجعاً في كل نقطة من جسمي. أقترب من الحافة. البناية صارت أعلى من العادة. أرفع ذراعيّ في الفضاء كأنهما جناحان. أرمي نفسي في الفراغ. خفة وراحة فيما أطير، أفكر أن كل شيء سينتهي بعد قليل.

بيتي الجديد أعجب أمي، قالت إنه بيت حقيقي لا غرفة نام فيها واستخدم أثاثها عشرات قبلي. تقول إن السيئة الوحيدة هي عدم وجود مصعد. للوصول إلى الطابق الرابع، كان عليها أن تستريح مرات كثيرة. أختي يارا تسبقها بربع ساعة على الأقل. في زياراتها المتباعدة تسألني: «كم الإيجار في الشهر يا ابنتي؟» أقول إنه خمسمئة دولار. تقول بلهجة متسائلة: «في الشهر؟ أليس غالياً؟» أخبرها أن كل الإيجارات هي هكذا الآن. عندما أشتري بعض الأشياء لهما أو لبيتهما تزعل مدعية أن علي أعباء مادية كثيرة. رغم انزعاجي من الكلام في الأمور المالية أخبرها بما أملك في حسابي. تجيب على الفور: «إن شاء الله تهنئين بصرفها». لكن الأمر يكون وقتياً إذ ستعاود لاحقاً الأسئلة نفسها.

في العمل، استمر أحمد في توسيع الأعمال، كل وكيل يعرّفه على وكلاء آخرين جدد. يقول إن كل هذا العمل المضني وهذه السمعة الطيبة ستضيع هدراً بما أن ابنه ليس مهتماً سوى بالمسرح. رغم هدوئه كان وجهه يحتقن ما إن يأتي على ذكر بكره. نقول له إن أحد أولاده لا بد سيهوى دراسة الحقوق. يهز رأسه بأسى، يبدّل نبرته مدعياً التعقل «لا أستطيع أن أرغمه، يريد حضرته أن يصبح راقصاً» يتصاعد غضبه ثانية ثم يغرق في صمته.

في السنوات الأخيرة كان يدعونا جميعاً لسهرة خلال الأسبوع الأول في بداية كل عام. يدعو إليها أيضاً وكلاءنا الأثرياء. اعتاد على غيابي عنها كما اعتاد كل من معي على عدم تلبيتي لأي من مناسباتهم الخاصة، لم تزعل مايا لأنني لم أحضر حفلة عرسها، وعندما لم أزرها بعد ولادة ابنتها. هي صارت تزورني برفقة ابنتها الرضيعة. أحملها فتتأمل وجهي فاتحة عينيها الكبيرتين كأنها ترى مخلوقاً عجيباً. ثم تشد جسمها بقوة لأوقفها على قدميها. ما إن أفعل حتى تجذبني من شعري. تحاول أن تحشر خصلة منه داخل فمها.

كلما ضاقت الدائرة وقل من أتحدث معهم أشعر بالهدوء. أذكر أنني كنت أسير باتجاه المكتبة. أحب أن أبحث بين رفوفها في الطابق السفلي عن كتب جديدة. قد لا ألتقي بأحد هناك على مدار أكثر من ساعة.

الموظفة تعرفني. لا تحاول أن تسألني كما تفعل مع الباقين «هل لديك عنوان أو كاتب محدد لأساعدك؟» سابقاً كنت أخرج من المكتبة ما إن تطرح علي هذا السؤال. الآن ألفت عاداتي. أفتح الكتب. أقرأ في صفحاتها الأولى لأعرف إن كان يعجبني الكتاب أم لا.

كنت منغمسة في بحثي مرة حين تناهى لسمعي صوت أعرفه، صوت امرأة تسأل في القسم الثاني من الطابق عن كتب مدرسية. لم أتبيّن بداية من صاحبته. تأكدت عندما سمعتها تتشاجر مع ابنتها التي تريد ماركة معينة لحقيبتها وهي تحاول أن تنهيها عن ذلك قائلة إن حقيبتها القديمة لا تزال ممتازة. لم أصدق أن الفتاة كبرت هكذا. الطفلة التي لاعبتها مع أخويها. حبست أنفاسي كأنني مطاردة.

تواريت بعيداً. أدرت ظهري. تظاهرت بتصفح الكتب لكن سمعي تركز على جهتهم. لم أرد أن تراني فأضطر لمكالمتها.

كان سلوكي غريباً حتى بالنسبة إلي. كانت هي وزوجها رمزي صديقين أحبهما. رغم ذلك يصيبني الرعب عندما ألتقي من أعرفهم كأنني علقت في مصيدة. حتى بعد اختفاء صوتها، حاذرت وأنا أصعد الدرج على مهل. تأملت المنشغلين بتصفح المجلات والواقفين في صف أمام الصندوق. كان قلبي يخفق كأنني اجتزت تجربة شاقة.

أذكر مرة كنت في سيارة أجرة عالقة في زحمة سير عند طريق المتحف. لمحت فادي يقطع الطريق. كان ينظر بثبات جهة شباك السيارة. فكّرت أنه تعرّف عليّ وهو متوجه نحوي. رفعت الملف الذي أحمله حجبت وجهي به كأنني أداري شمساً لم تكن بادية في السماء. اضطرابي جعل الراكب قربي ينظر باتجاهي مستغرباً. لكن فادي لم يتعرف إلي، كان تحديقه في الفراغ لا في وجهي.

حين ألمح وجهاً أعرفه أسارع إلى الجهة الأخرى من الشارع. أحث الخطى متأملة الأرض. مرة لم أرَ مخرجاً سوى الدخول إلى أول محل. لم أنتبه إلا حين صرت في الداخل إلى أنني في محل لبيع المجوهرات والساعات. تظاهرت بتأمل ما لديه باهتمام. زوغان عيني أقلق صاحب المحل. تبدلت ملامحه. أشرت بسرعة إلى ساعة معروضة. سألته عن سعرها. اشتريتها رغم غلائها. أهديتها لاحقاً ليارا. زعلت. لكن حين وضعتها راحت تقلب معصمها في كل الاتجاهات مطيلة في تأملها. أما تعليق أمي فكان «لماذا تفعلين هكذا يا ريتا؟» كأنني ارتكبت خطأ لا يغتفر. كان فرح يارا بالأشياء طفولياً. تخبرني ما قالته زميلاتها واحدة واحدة بخصوص ساعتها

الجديدة. كنت أقول ما إن تبادر بالحديث «بدأنا الآن يوميات الساعة؟» ثم انتبهتُ إلى أنها تتظاهر فقط، وإلا لماذا لا تستوقفها كل تلك الواجهات التي نمرّ بها. لم تكن يوماً متعلقة بالأشياء. في مراهقتي كان بإمكاني أن أستعير ما شئت من ثيابها وأغراضها. شرائي ساعة ليارا ذكّرني بالمرات التي فاجأت فيها إبراهيم بهدايا لم يتوقعها خصوصاً في فترات الشح المادي.

إضافة إلى القداحات كان يحب الساعات وعلاّقات المفاتيح ومحفظات الجلد الصغيرة. أذكر كيف يشع وجهه بالضوء، يرفع يدي ويقبّلها. يقول إنني أرقّ وأحنّ فتاة. كان فرحه بالهدية يستمر طويلاً، يستعرضها كل يوم أمامي. يريها لأصحابه، لأمه، لأخواته، لا أفهم كيف لشيء بسيط أن يفرحه هكذا. أنا أيضاً أفرح بالأشياء الجديدة لكن ليس كفرح إبراهيم.

كثيراً ما أحس إحساساً زائفاً بقربه. أتلفت في الشارع كأنه سيظهر فعلاً بعد لحظة. ماذا أفعل لو التقيته؟ هل أعبر إلى الجهة الأخرى؟ هل أتجاهله كأنه لم يكن؟ كنت أعلم يقيناً أنني لن أفعل ذلك أبداً.

تنقل يارا أخبار إبراهيم بارتباك. أسمعها بوجه جليدي، لكن في قرارتي أنصت كي لا يفوتني شيء.

أعلم أنه هناك في الحياة التي له. ثقل ينزاح عني لفترة قبل أن تعاودني تلك الكوابيس.

قبل أن يحصل ذلك معي لم ألحظ أنني أشكو من شيء. حتى حين فقدت الوعي لم أنتبه أبداً. وجدتني في سرير موصولة إلى أجهزة. كمامة الأوكسيجين تعيقني عن مكالمة مايا. هي من رافقني في سيارة الإسعاف.

كانت تحدق بي بثبات. لم أستطع تفسير نظراتها. عندما لاحظت محاولتي للكلام معها، اقتربت مني دون أن تنحني. قلت يارا فقط. فهمت ما أقصد. قالت لي ألاّ أخشى ذلك. لم تتصل بهما. لا يمكن أن تفعل ذلك دون استشارتي. رجوتها أن تدعني وتذهب لبيتها ولابنتها فأنا بخير. قالت إن الطبيب يريد إبقائي في المستشفى لمزيد من الفحوصات. ترددت قبل أن تحمل حقيبة يدها الملقاة على كرسي قربي. وقفت جنبي. قالت إنها ستتصل مساء لتطمئن علي. «لا تنشغلي. المسألة مجرد تعب». قلت لها.

كانت الممرضات يدخلن على مدار النهار إلى غرفتي. سألتني إحداهن إن كنت أريد طبيباً معيناً ليعاينني. اقترحت هي اسماً وافقتُ عليه. فحوصات أُجَرُّ إليها جالسة على كرسي بعجلات أو فوق السرير. لا ترد الممرضة عندما أقول إن بإمكاني السير على قدميّ.

لم أحكِ مع أحد كما أن أحداً لم يكلّمني لا في غرفة الأشعة ولا في المختبرات. يذكرون اسمي المكتوب على الملف معهم: «ريتا شدي قبضتك أكثر» «استلقي ورأسك جهة الجدار».

مادة لزجة يُدهن بها صدري العاري. أخفيه بظل يدي. تطلب الممرضة بصوت حازم أن أبعدهما. الطبيب يمرر آلة معدن بارد. يحدق في الشاشة أمامه. لا ينبس بكلمة. يطلب أن أعدّل في طريقة استلقائي.

عندما كلمني الطبيب بعد يومين خلال جولته السريعة، سألته «متى أخرج؟» رفع حاجبيه مستغرباً. قال إنه سيجري فحوصات أدق. لم تعجبه صور الرنين الصوتي.

كنت أخشى أن تتصل يارا أو تزورني ولا تجدني. قالت مايا إن أختي اتصلت بالمكتب. حكتْ معها. قالت لها إنني مشغولة وإنني أغيب كثيراً عن المكتب لأن ثمة قضايا تستلزم حضوري في المحكمة.

أنظر إلى الطعام في العلب البلاستيكية. الخس ذبل ومال إلى البني. «الجيلو» فقد تماسكه وماع. الدجاج كقطعة مطّاط. حتى التفاحة تبدو من مادة البلاستيك. ترد الممرضة الصينية كما هي بعد أكثر من ساعة. لا تقول شيئاً.

ممرضة أخرى تسألني بينما تقيس ضغطي وحرارتي لماذا لا آكل. المصل وحده لا يكفي.

أنظر إلى الكيس الذي ينفلت منه السائل نقطة نقطة. أفكر أن علي أن أتصرف بحزم وأن أخرج. لا أحد يستطيع أن يلزمني بالبقاء. التفت إليها. قلت سأخرج بعد ساعة. لم أستمع إلى اعتراضاتها، إلى قولها إن ذلك غير ممكن دون إذن من الطبيب.

على غير عادته جاء الطبيب يتفقدني بعد أقل من ساعة على خروجها. قال إنه بحاجة إلى فحوصات أخرى. لكنه حتى الآن لاحظ اعتلالاً كبيراً في عضلة القلب وأنه نظراً لتاريخ العائلة

ولأمراضنا الوراثية فإنه يشك أن يكون الاعتلال حديثاً. صحيح أنه لم يكن بهذا السوء، لكن المشكلة لدي قديمة، كيف لم أنتبه لها.

في دخولي الثاني إلى المستشفى هيأت أمي وأختي إلى احتمال غيابي لأيام. ادعيت أنني سألبي دعوة مايا لقضاء أيام عندهم في بيت الضيعة. رغم استغرابهما فرحتا لأنني أخيراً أفعل شيئاً غير العمل.

الفحوصات التالية كانت أصعب. لكنها لم تكشف جديداً. أعاد على مسمعي ما سبق وشخّصه. تردد قبل أن يقول إن الحالة سيئة أكثر مما توقع حتى. وفي مثل حالتي ليس هناك إمكانية لأي عملية.

عندما عدت إلى البيت سرت طويلاً رغم تعبي. في يدي حقيبة صغيرة فيها الثياب التي كانت معي في المستشفى إضافة إلى بعض الأدوية. لم أنتبه للشوارع التي كنت أقطعها ولا للهواء الساخن والأغبرة التي تدخل إلى عيني وفمي. كنت أفكر بالإجراء القانوني الذي يُسهّل على يارا وأمي الحصول على حسابي المصرفي.

في البيت، حضرت وجبة خفيفة، جبنة وزيتوناً وبيضاً مسلوقاً وسلطة بندورة مع نعناع وبصل. وضعتها فوق صينية. حضرت كأساً من الفودكا والقليل من المياه الغازية. رغم الحر، جلست إلى شرفة المطبخ المطلة على الموقف. كان الهواء الساخن يتراجع مع تقدم ساعات الليل. أنهض من حين لآخر لأملأ كأساً أخرى. أنظر إلى يميني إلى شرفة الشقة المهجورة. يبدو هيكل العربة كشخص بدين يستريح في كرسي هزاز ويتأمل الليل والسماء. تقلّ العربات في الموقف. أمجّ السيجارة مجّات طويلة. أحسّ بسعادة غامرة.

تراجعت ذكريات المستشفى والطبيب إلى مكان قصي في دماغي. لذلك كنت أنزعج حين أُسأل في المكتب عن صحتي.

عدت إلى حياتي دون أن ألتزم بأي من الممنوعات التي فُرضت علي. رغم الغثيان الذي صار يصيبني على نحو متكرر لا أشعر بأي نفور من السيجارة. على العكس حين أمجّ مجة طويلة ترتخي أعصاب معدتي المنقبضة. كنت أفكر أن ما أحسّه مؤخراً هو نفساني محض. لذلك لا أعير اهتماماً أياً من الأعراض التي تنتابني. ما كان يزعجني هو تلك الإغماءات التي راحت تصيبني حتى وأنا جالسة دون جهد. كأن قلبي يبطئ ضرباته فجأة. غلالة رمادية تحجب الأشياء شيئاً فشيئاً حتى يغيب كل شيء من حولي وينطفئ كالأنوار البعيدة.

عندما صار السير إلى العمل يرهقني صرت أركب سيارة أجرة. أستخدم في العمل المصعد لأول مرة. ابتلاع الطعام بدوره صار يتطلب قوة مني. ألهث بينما أسناني تلوك اللقمة كمن سبح لساعة دون راحة. عرقٌ باردٌ يوقظني من عزّ نومي. لكنني لا أقول لا ليارا حين تقترح عليّ أن نسير كالعادة جهة البحر. ثم رحت أتخلّف عنها في المشي. تتلفت فتراني خلفها مقطوعة الأنفاس. شحوبي يقلقها. تقول إن السيجارة هي السبب. تخبرني عن زميلات لها أقلعن عن التدخين. تصف الرونق الذي استعدنه. تحكي عن علاجات مساعدة. لا أعلق بأي كلمة. أحياناً تتأبط ذراعي كي لا تسبقني. أطلب منها أن نستريح كل بضع خطوات. نتكئ على درابزين الحديد أو نجلس على مقعد حجر شاغر قبالة البحر. تتأملني كمن يتهيأ لقول كلام مكتوم منذ زمن. لكنها تتراجع في اللحظة الأخيرة.

سواء كان السبب نفسياً أم صحياً بات الوصول إلى بيتي وتسلق الأدراج يستلزم وقتاً طويلاً. ألتقي بالسكان في صعودي. أتحرج بداية عندما أفاجأ متكئة إلى الجدار أو جالسة فوق إحدى

الدرجات. لاحقاً يصير ذلك عادياً بالنسبة لنا جميعاً. نتبادل تحية خاطفة دون أن نلتفت. غالباً ما أستغني عن الاستحمام بعد عودتي من العمل. أضع مقعد بلاستيك داخل المغطس. أستحمّ جالسة. أقلّص عدد المرات التي أغسل فيها شعري. الكتاب أضعه فوق وسادة على ركبتي لأقرأ. أوفّر عليّ جهد حمله. لأول مرة أستعين بمن يساعدني على تنظيف البيت. في أقلّ من شهرين خسرت سبعة كيلوغرامات من وزني. حتى السيجارة أستصعب تدخينها.

عندما تقول أمي إن لوني وصحتي تقلقها، تنظر إليها يارا فتسكت ولا تكمل ما بدأته. أخطط لكل حركة أقوم بها. ألغي كل ما يمكن الاستغناء عنه. أحاول ركوب المصعد برفقة أحد. أتلكأ إن كنت وحدي حتى ألمح من يستقله معي. بابه ثقيل أعجز عن دفعه لأخرج منه. كأن الأشياء تضعف تدريجياً حتى تنطفئ واحدة تلو الأخرى في داخلي. حتى هيئتي لا تشبهني. صرت ظلاً لما كنته قبل شهور.

عندما وجدوني مكوّمة أرضاً قرب مكتبي أصر أحمد أن يتصل بأهلي. أخبروني لاحقاً أنه تشاجر في المستشفى مع مايا بشأن ذلك. قالت له إنه رئيسي في العمل فقط. لا يحق له أن يقرر بدلاً مني. لم يمتثل لما طلبت. اضطر لمكالمة أمي لأن يارا كانت في المدرسة. عندما فتحت عينيّ علمتُ أن حياتي لن تعود إلى ما كانت عليه. بدت أمي هادئة. ابتسمتْ ما إن فتحت عيني. لم يبدُ عليها أي قلق. لوهلة تأمّلتُ ألا تكون عرفت شيئاً.

لزمني وقت طويل لأعتاد المكوث في بيت أهلي. في الأيام الأولى افتقدت عملي كثيراً. كانت مايا تزورني برفقة ابنتها. تضحكنا جميعاً بكلماتها التي تلفظها مقلوبة الحروف. تصطحبها يارا إلى

الدكان أو تشتري لها البوظة من محلّ مواجه للكورنيش. أحياناً تمرّ بنا. أكون نائمة تحت تأثير واحد من الأدوية.

مساء أدخن نصف سيجارة وكذلك أفعل ظهراً. كانت أمي من يمسك بيدي لأدخل الحمام. رغم قصر المسافة يلزمني وقت طويل لأتجاوز العتبة. مرات أسقط عليها فتفقد توازنها وهي تمسك بي كي لا أقع. تستجيب لي يارا أخيراً وتجد من يساعدني بدلاً من أمي. تجلسني يارا على كرسي ثم تحملني بمساعدة الخادمة. تضعاني فوق الشرفة. تدثرني بغطاء حتى لو كان الطقس حاراً لأن البرد لا يبارح جسمي. أنظر إلى البحر بعينين نصف مغمضتين.

كثيراً ما تجلس يارا قرب سريري. تواصل قراءة الرواية من حيث توقفنا قبل ليلة. صوتها ينيمني. أفتح عيني في العتمة، أجدها في جلوسها، يداها مضمومتان في حضنها.

ترسل يارا ملفي الطبي مع أقارب بعيدين أو معارف لم أسمع بهم، إلى أميركا وإنكلترا وفرنسا وكندا. تقرأ على الإنترنت عن أناس مثلي خضعوا لعمليات. آمالها تنطفئ ما إن تحادث طبيبي. لا أحب أن أردعها عندما تنطلق ثانية في فورة أمل. أهزّ رأسي موافقة ثم أدعه يسقط فوق الوسادة كحجر. كل نفس يدخل أو يخرج من رئتي يشق صدري نصفين فيرتفع لهاثي ويوقظهما أحياناً.

عندما طلبت من يارا أن تشتري لي جهاز كمبيوتر لم تسألني لماذا أريده. اختارت واحداً خفيفاً. قالت إنه يسهل أن أضعه في حضني وأنا في السرير.

فكرت أن أكتب بعض ذكرياتي. الآن لم يعد هناك ما أكتب عنه. أعجب كيف لا يبقى إلا القليل في رأسنا من ملايين اللحظات التي عشناها.

صدر للمؤلفة

1 ـ بورتريه للنسيان، المركز الثقافي العربي، 1994.

2 ـ شتاء مهجور، المركز الثقافي العربي، 1996.

3 ـ بيوت المساء، دار الجمل، 1997.

4 ـ البئر والسماء، المركز الثقافي العربي، 1997.

5 ـ العابر، المركز الثقافي العربي، 1999.

6 ـ بلاد الثلوج، المركز الثقافي العربي، 2001.

7 ـ بيروت 2002، المركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2007.

8 ـ أيام باريس، المركز الثقافي العربي، 2005.

9 ـ صلاة من أجل العائلة، المركز الثقافي العربي، 2007، طبعة ثانية 2009.

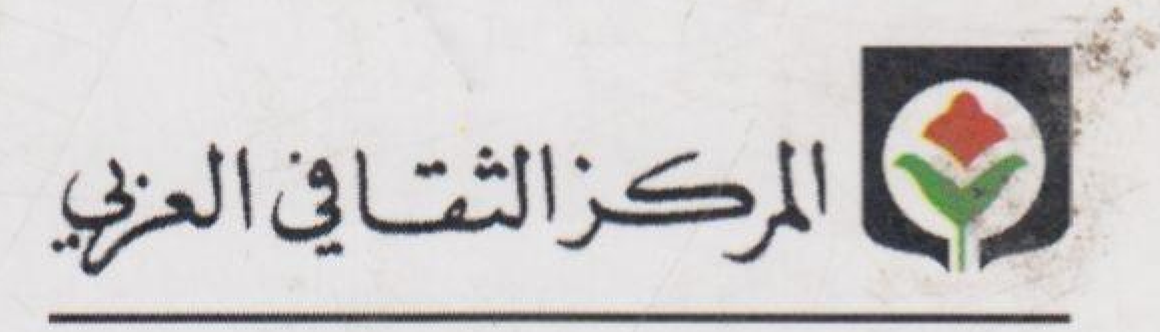
رينيه الحايك

حياة قصيرة

عندما يعود إبراهيم، يكون متعباً. لا ينطق بأية كلمة حتى بعد أن يستحم ويجلس قبالتي إلى طاولة الطعام. يشرب العصير رشفات صغيرة كأنه كأس ويسكي. شيئاً فشيئاً يستعيد بعض الهدوء. قد يحكي عن عمله وقد لا يفعل. يصرّ أن أخبره عن يومي. أحكي عن الكتب التي أقرأ فيها. أحياناً يبادر هو لسؤالي عما حل بشخصية أو بأخرى في الكتاب. يحصل أن أنسى الكتاب تماماً، أما هو فيظل يذكر الشخصيات بأسمائها ويقارن بين ما حصل معها من أحداث وبين ما نعيشه نحن في الواقع. قد نستعيد أشياء جرت معنا في بيروت أو نعاود سرد حادثة مضحكة عن أحد أصدقائنا. نضحك كأننا علمنا بها للتو. أحياناً أخبره عن مشواري إلى السوق الهندي الذي أحب التجوال فيه. أريه الهدايا التي اشتريتها لأهلنا ولأصدقائنا. يستغر
أشغل نفسي بشراء هدايا وموعد عودتنا بعيد، لا أقول
أفعل ذلك كي أحسّ أن رحيلنا قريب.


ISBN 978-9953-68-436-7
9 789953 684369

لوحة الغلاف: كونين اوبهارا



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma